من الأدب الإيطالي

سراب

أنطونيو تابوكي



ترجمة

نبيل رضا المهايني

رواية

أنطونيو تابوكي

سراب

ترجمة

نبيل رضا المهايني

دار الساقي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مكسه ٢٨٩

Antonio Tabucchi, *Il filo dell'orizzonte*, Giangiacomo Feltrinelli Editore
Milano, 1986

الطبعة العربية

الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-916-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

"تنتمي الكينونة بشكل ما إلى 'نوع ثالث'
غير متجانس على الإطلاق مع الوجود أو عدم الوجود."

فلاديمير يانكيليفتش

١

لفتح الصناديق يجب تدوير مقبض القفل مع الضغط عليه. عندها ينفصل النابض وتعمل الآليّة وهي تصدر صوتاً معدنيّاً، فتبدأ الدواليب الصغيرة بالدوران أوتوماتيكيّاً على سككها الصغيرة لتنطلق الصناديق الموضوعة عليها والمائلة عادةً بعض الشيء وتنجرّ وتخرج وحدها. في البداية تظهر القدمان، ثمّ البطن، ثمّ الجذع، ثمّ رأس الجثمان. أمّا إن كانت الجثث لم تخضع بعد للتشريح فيجب عندها سحب الصندوق باليد لمساعدة آليّة الجرّ، لأنّ بعض الجثث يكون بطنها منتفخاً بشكل يضغط على الجانب الأعلى من الصندوق ويعرقل حركته. أمّا الجثث المشرّحة فتكون في العادة ناشفة، وكأنّها جُفّفت. يوضع لها أيضاً شيء كالسحّاب ينجرّ على طول البطن بعد أن يُحشى بالنشارة. وعلى هذا فإنّ هذه الجثث قد تذكّر بدمى كبيرة أو ألعاب مسرح العرائس التي تُرمى في مستودع الأشياء القديمة بعد انتهاء المسرحيّة. والواقع أنّه يمكن اعتبار

هذا المكان نوعاً من مخازن الحياة، أو محطّة أخيرة يوضع فيها ركام المسرحيّة بانتظار تصنيفه تصنيفاً ملائماً. وبما أنّه لا يمكن إغفال سبب الميتة، فإنّ على الجثث أن تنتظر في هذا المكان، وهو لا يتوانى عن مراقبتها وتقديم المساعدة المطلوبة. كيف لا وهو يدير من الناحية العمليّة هذه العتبة التي تنطلق منها الصورة المرئيّة لترحل رحيلاً نهائيّاً. إنّه يسجّل عمليّات دخولها وخروجها، يصنّفها، ويرقّمها، وقد يصوّرها أحياناً، ثمّ يملأ بطاقتها الأخيرة أي الاستمارة التي تخوّلها مغادرة عالم المحسوس. إنّه بالفعل رفيقها الأخير، بل وأكثر من ذلك، أي أنّه الوصيّ اللاحق عليها، وصيّ موضوعيُّ النظرة جامدُ القسمات.

والواقع أنّه يتساءل في بعض الأحيان سؤالاً من نوع آخر: هل هناك فعليّاً مسافة كبيرة تفصل بين الأحياء والأموات؟ ليس هناك طبعاً جواب عن هذا السؤال، لذلك فإنّه سرعان ما يُنظّر للقضيّة بادّعاء أنّ التعايش بين الفئتين قد يساعد في تقليص تلك المسافة. يجب أن تحمل الجثث بطاقةً تُربَط عادةً بإبهام القدم وعليها رقم التسجيل، وهو يضع تلك البطاقة رغم أنّه واثقٌ من أنّها كانت تكره خلال وجودها القديم أن تُصنّف بالأرقام كما لو أنّها شيءٌ من الأشياء. لهذا فإنّه كان يخترع لها، في ذات نفسه وعلى سبيل المزاح، ألقاباً غريبة يلقّبها بها، ألقاباً قد لا يكون لها أيّ أساس، أو قد تخطر على باله بسبب

شبه ما بين الجثّة وشخصيّات بعض الأفلام القديمة أو لأنّها تذكّر بظرفٍ معيّن مرّت به تلك الشخصيّات: ماي ويست، بروفسور اونرات، مارشيلّلينو بان اي فينو. مارشيلّلينو مثلاً يشبه بالبيتو كالفو: رأسٌ مستدير، ركبتان ناتئتان، غرّة سوداء برّاقة. ثلاث عشرة سنة، سقط عن السقالة، عامل بالسرّ. الأب مفقود، الأمّ تعيش في سردينيا ولا يمكن أن تعود. سيرسلونه لك غداً.

لم يبقَ من المشفى القديم إلاّ جناح التخدير والمشرحة في هذه الأنحاء من المدينة القديمة حيث يقع ما يسمّى المركز التاريخيّ. فالمنطقة تمرّ منذ زمنٍ طويل في مرحلة الدراسات والترميم، بينما تمضي السنون وتتعاقب إدارات البلديّة وتتغيّر المصالح. لكنّ مشاكل المناطق المصابة تتعقّد، ويشتدّ ضغط المناطق الأخرى ليهدّد المدينة برمّتها، وهذا يحوّل انتباه الخبراء نحو المناطق التي يحتشد فيها السكّان "المنتجون" وتتكاثر فيها مهاجع عملاقة. هناك توجد أبنية تحتاج إلى تدخّل المكاتب الفنّيّة: فقد تنهار الهضبة مثلاً كأنّها تريد أن تنفض عنها تلك القشور والرواسب القبيحة، عندها تنطلق الإجراءات العاجلة والمخصّصات الماليّة الاستثنائيّة، ثمّ يجري الكلام عن طرقٍ ستُبنى، وأنابيب ستُمدّد، ومدارس، ودور حضانة، واستشاريّات. أمّا هنا فالاحتضار شائع، والجذام البطيء يغزو الجدران، والبيوت المتهاوية أصلاً

تتداعى تداعياً نهائيّاً، لأنّها أدينت وتمّ إبرام إدانتها. يعيش في تلك المناطق عُجَّزٌ وموسمات، باعةٌ متجّولون، باعة أسماك، فتيةٌ عاطلون من العمل، بقّالون يعملون في دكاكين قديمة مهترئة مظلمة تفوح منها روائح البهارات والسمك المقدّد وتعلو أبوابها لافتاتٌ باهتة الألوان عليها كتابات لا تُقرأ إلا بصعوبة، مثل: "نبيذ – عطورات – تنباك". أمّا عمّال النظافة فنادراً ما يمرونّ من هناك، لأنّهم هم أيضاً يزدرون ركام هذه البشريّة المنحطّة. في المساء تلمع في الحارات الحقنُ وأكياس البلاستيك وكتلٌ مبهمة الشكل لبعض القوارض النافقة المرميّة على أطراف الطرقات، حيث تحذّر الإعلانات التي تضعها دائرة مكافحة الأمراض من لمسِ أيّ طعامٍ مخضرّ مرميّ على الأرض.

أصرّت سارة عدّة مرّات على المجيء لاصطحابه في الأمسيات التي ينتهي فيها عمله عند العاشرة، لكنّه كان يرفض على الدوام. ليس خوفاً من الناس، لأنّه لا يسكن في الحارة إلاّ ثلاث مومسات هادئات عليهنّ حرّاس يقظون يراقبونهنّ من نوافذ الطوابق الأولى، بل خوفاً من جوقات الجرذان الشرسة التي لا يمكن تصوّر حجمها وهي تجوب في الليل، ولا بدّ أن تخاف منها سارة وتفزع بطريقة لا تستطيع الآن أن تتخيّلها. وإن كانت الجرذان كثيرة في كلّ أنحاء هذه المدينة فإنّها وجدت في هذه المنطقة مركزاً خاصّاً لها تتكاثر فيه وتنمو.

لذلك كان سبينو يلوك في رأسه نظريّةً لم يخبر بها أحداً، وسارة قبل الجميع. إنّه يظنّ أن وجود المشرحة في هذا المكان هو ما يستهوي الجرذان.

٢

مساء السبت يذهبون عادة إلى "المصباح السحري" وهو نادٍ سينمائي في أعلى طريق فيكو دي كاربوناري، يقع في رواق ضيّق كأروقة البلدات الصغيرة التي تذكّر بالبيوت الريفيّة القديمة. على ذلك الإرتفاع يظهر الميناءُ، ومفصلُ دروبِ حيِّ اليهود القديم، والبرجُ الورديّ للكنيسة المحشورة بين البيوت والجدران، وهي تتخفّى بينها بحيث لا يمكن رؤيتها إلّا من هذا الارتفاع، ولا يمكن الوصول إليها إلّا عن طريق ذلك الدرج الآجرّي المتآكل من كثرة الاستعمال. نُصب على الدرج درابزين من حديد مصقول يلتوي على الجدار، اجتاحته فروع نبات القبّار فغطّت ما عليه من كتابات باهتة. ورغم ذلك يمكن للمرء أن يقرأ: "عاش كوبّي، قانون اللصوصيّة لن يمرّ" وغير ذلك من شعارات عفا عليها الزمن. في ليالي الصيف، بعد السينما، ينهون الأمسية في مقهى صغير في آخر الحارة، على شرفةٍ عليها عريشة، ويتصدّرها حجران من الغرانيت بينهما جنزيرٌ وجدارٌ

مكسه ٢٨٩

متهالك. ليس في المقهى إلّا أربع طاولات رخاميّة رسَمَتْ عليها بقايا النبيذ والقهوة دوائر امتصّها الرخام حتّى لَيُظنّ أنّها محفورة في داخله، أو أنّها كتابات هيروغليفيّة يجب أن تُترجم ليفهمها الإنسان. إنّها آثار من ماضٍ قريب يتحدّث عن زبائن آخرين وأمسيات أخرى ومقارعاتِ كؤوس وسهرات كانت تتخلّلها ألعاب الورق والأغاني.

تتهاوى المدينة تحتهما بهندستها الفوضويّة، وأضواء بلدات الخليج، بل والعالم كلّه. تتناول سارة شراباً مثلّجاً بالنعناع ما زالوا يحضّرونه في هذه الأرجاء بأداةٍ بدائيّة لقشط لوح الثلج المجمّد، وهي مجرّد علبة ألمنيوم يتجمّع داخلها الجليد المقشوط رخواً ناعماً مثل الثلج المندوف. صاحب المقهى رجلٌ بدين يظهر الغضن تحت عينيه كالأكياس، وهو ثقيل الخطى بطيء الحركة، يرتدي مئزراً أبيض اللون يُبرز كرشه، يبتسم دائماً وهو يدلي بنبوءات مقتضبة عن الطقس: "غداً سيكون الطقس أبرد من اليوم، ستكون الريح شرقيّة" أو "هذه حرارةٌ تنبئ بالمطر." إنّه يتنطّع ويدّعي معرفة أمور الرياح والطقس لمجرّد أنّه كان بحّاراً في شبابه، بل إنّه أبحر مرّة على باخرة في طريقها إلى القارّة الأميركيّة.

تضمّ سارة ساقيها بينما تغطّي كتفيها بالشال، كما تفعل حتّى عندما يكون الطقس حارّاً، لأنّ جوّ المساء يحرّك آلام المفاصل. نظرت نحو البحر، فبدا لها كتلةً قاتمة كالليل الحالك، ومن

الصعب معرفة أنّه بحر لولا تلك الأضواء الثابتة المنبعثة من السفن الواقفة بانتظار أن تدخل إلى الميناء. قالت "ما أجمل السفر"، فعلّق "حقّاً؟". منذ عشر سنين وسارة تقول "ما أجمل السفر"، فيجيبها "علينا ربّما أن نسافر، عاجلاً أو آجلاً." لكنّ الحديث عن هذا الموضوع لم يكن ليتجاوز أبداً حدود هاتين العبارتين المعتادتين، وذلك بموجب تفاهم ضمنيّ بين الاثنين. ومع هذا فهو يعرف كيف أنّ سارة تحلم بهذه الرحلة المستحيلة. يعرف لأنّه ليس صعباً عليه أن يقترب من أحلامها. هناك باخرة عابرة للقارّات في تخيّلاتها وهناك كرسيّ استرخاء على سطحها ولحافٌ يقيها من نسيم البحر، هناك أيضاً سادةٌ يرتدون سراويل بيضاء ويلعبون في آخر الجسر لعبة إنكليزيّة. يحتاج الأمر إلى عشرين يوماً للوصول إلى جنوب أميركا، دون تحديد مدينة معيّنة: مار ديل بلاتا، مونتيفيديو، سالفادور دو باهيا، ولا يهمّ أيّ مدينة نختار. فجنوب أميركا صغيرة بحيث يتّسع لها حيّز الأحلام. فضلاً عن فيلم من بطولة ميرنا لوي أعجبت به سارة كثيراً: أمسيات أنيقة ورقص على متن الباخرة، باخرةٌ سطحها مُنارٌ بأكاليل من الأضواء بينما تعزف الاوركسترا أغنية "أيّ ليلة، أيّ قمر وأيّة صبيّة"[١] أو بعض معزوفات تانغو الثلاثينيّات مثل

١ *What a night, what a moon, what a girl* (م)

مكسه ٢٨٩

"بور أونا كابيسا"[١]، وهي ترتدي رداء سهرة فوقه شال أبيض، وتستسلم لمغازلة القبطان الشهم بينما تنتظر أن يأتي فارسها من قاعة التمريض ليدعوها إلى مراقصته. فهناك بالطبع طبيب الباخرة فضلاً عن رجلها المعهود.

وإن لم تكن أحلام سارة على هذا الشكل فهي ليست بعيدة كثيراً عنه. فالأمسية التي شاهدا فيها فيلم **مياه الجنوب**[٢] بدت أمسية حزينة بالفعل. كانت تتمسّك بذراعه، ثمّ عادت لتناول شرابها المثلّج وإلى حديثها القديم عن شهادة جامعيّة لم يتمكّن من تحصيلها. ولا جدوى من أن يبرّر هذا بحجّة العمر، لكن هل ستنتبه في نهاية المطاف إلى أنّ شخصاً في عمره لن يرغب أبداً في العودة إلى مقاعد الدراسة؟ خاصّة عندما يفكّر في السجلّ الجامعيّ، والبيروقراطيّة وفي زملائه القدامى الذين أصبحوا أساتذة ولا بدّ من أن يراهم منتصبين فوقه ليراقبوه وهو يؤدّي الامتحان: هذه أمور لا يمكنه أن يتحمّلها. لكنّها أصرّت وقالت إنّ هذا كلام لا يفيد في شيء: فهذه الحياة طويلة، وربّما أطول ممّا نتوقّع، لذلك لا يحقّ لنا أن نهدرها عبثاً. عندها رأى أنّ من الأجدر أن ينظر إلى البعيد، وأن لا يجيب، فسكت ليُنهي هذا النوع من الأحاديث عسى أن لا تُفتح مرّة أخرى سيرةُ شهادته

١ *Par una cabeza* (م)

2 *Acque del Sud (To Have and Have Not) 1944.*

الجامعيّة الفاشلة. فهذا حديث يؤلمه حقّاً. من جهة أخرى فهو يتفهّم مشاعرها. لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ من المؤكّد أنّ حياة عشّاقٍ بالسرّ أصبحت بالنسبة لامرأة في عمرها أمراً غريباً ومزعجاً إلى حدّ كبير، لكنّه يرى أنّ من الصعب تغيير العادات والانتقال فجأة إلى الحياة الزوجيّة. كما أنّه يخشى فكرة أن يصبح أباً لذلك الشابّ الذي بلغ الآن ثمانية عشر عاماً، ذلك الفتى المراوغ الذي يتحدّث بطريقة غريبة وتظهر عليه ملامح صبيانيّة بليدة. عندما كان يراه أحياناً وهو في طريق عودته من المدرسة، كان يقول في قرارة نفسه: قد أكون أنا أباك، أو نائب أبيك.

ليس هذا موضوعاً يرغب على كلٍّ في طرحه معها. كما أنّ سارة لا ترغب أيضاً في خوضه، وإن كانت تودّ أن يرغب هو في ذلك. وهكذا فإنّها لم تفتح هذا الحديث، بل تكلّمت عن الأفلام، خاصّة أنّ المصباح السحريّ خصّص برنامجين لعروض ميرنا لوي وبوغارت بل حتّى فيلم سريّ للغاية: هناك إذاً مادّة وفيرة بالفعل للّغو والثرثرة. يمكنها أن تسأله مثلاً هل لاحظ الشالات التي ترتديها ميرنا لوي؟ لا بدّ من أنّه لاحظها، كيف لا، وهي مبهرجة بصورة صارخة؟ حتّى فولارات بوغارت الناعمة المنقّطة، لا يمكن بالفعل تحمّلها... إنّه يشعر أحياناً بأنّ نفحات من الكولونيا والبرلنتين تهبّ عليه من الشاشة. سارة تضحك بصوتها المنخفض الناعم المعتاد. لكن لماذا لا يخصّصون برنامجاً عن فيرجينيا مايو؟ كان

الصعلوك بوغارت يعاملها كأنّها كلبة. إنّها تكنّ محبّة خاصّة لفيرجينيا مايو، خاصّة أنّها ماتت في غرفة الموتيل بعدما هجرها فحطّمها الكحول. لكن، على فكرة، ألا تبدو تلك الباخرة الراسية في الميناء باخرة عابرة للقارّات؟ إنّها ترى أنّ تلك الباخرة مضاءة جدّاً، أشدّ من إضاءة البواخر التجاريّة. إنّه متردّد، لكن لا يعرف ماذا يقول، لكن لا، فالبواخر العابرة للقارّات لم تعد تُستعمل، كأنّها أصبحت خارج التغطية، أمّا ما بقي منها على قيد الحياة فهو يُستعمل في الرحلات البحريّة. فالناس يسافرون الآن بالطائرة، ومن يقبل أن يسافر الآن بالبواخر العابرة للقارّات؟ فتجيب: "حتماً، معك الحقّ"، لكنّه يفهم من لهجتها أنّها غير موافقة، وأنّ هذا نوع من الاستسلام. بدأ صاحب المقهى يجول حولهما وهو يحمل قطعة قماش في يده ينظّف بها الطاولات الفارغة: رسالة صامتة تعني أنّهما لو تفضّلا بوضع حدّ لهذا الإزعاج لتمكّن من إغلاق الدكّان ليذهب ويخلد إلى النوم. فهو يقف على قدميه منذ الثامنة صباحاً، والسنون تثقل كاهل الإنسان أكثر من كرشه. كما أنّ النسيم أصبح بارداً، والليل ساكناً ورطباً، وقد غطّى خمارٌ ملحيّ سواعد الكراسي. قال إنّه يفضّل حقّاً أن يذهبا. وافقت سارة على أنّ هذا أفضل، كانت عيناها تلمعان، وهو لا يعرف إن كان هذا نتيجة انفعال أو مجرّد تعب وإنهاك. قالت له: "يسرّني أن تبقى هذه الليلة وتنام معي." قال سبينو إنّ هذا مدعاة سرور له أيضاً، لكن بما أنّ غداً دوره في الاستراحة، يمكنها أن تأتي لزيارته في

الصباح وتبقى عنده حتّى المساء، سيمكنه أن يحضّر بسرعة لقمةً لغداءٍ في المطبخ ثمّ يقضيان كلّ العصر في السرير، وستهمس في أذنه قائلة إنّ من المؤسف أنّهما تعارفا بهذه الطريقة المتأخّرة، أي عندما انتهت اللعبة. على كلٍّ فهي سعيدة بقربه، ربّما كان هذا هو رأيه أيضاً، لكنّه سيقول لها "لا" لمجرّد أن يشجّعها، فأن يكونا عاشقين أمر وأن يكونا زوجين أمر آخر مختلف، لأنّ الأمور اليوميّة هي ألدّ أعداء الحبّ، تقطّعه إرباً إرباً.

بدأ صاحب المقهى بتنزيل الباب وهو يتمتم بصوت منخفض "ليلة سعيدة."

٣

جاؤوا به في منتصف الليل، وصلت سيّارة الإسعاف بصمت، بأضواء خافتة، ففكّر سبينو في الحال: يجب أن يكون الأمر مرعباً. كان قد ظنّ أنه نام لكنّه ميّز بكلّ وضوح صوت محرّك سيّارة الإسعاف وهي تدخل إلى الحارة بهدوء كبير يدلّ على أنّ أمر من فيها قد انتهى، فقال في نفسه إنّ الموت يأتي ببطء وإنّ مقياس الموت الحقيقيّ هو أنّه حتميّ بطيء.

في تلك الساعة تنام المدينة، هذه المدينة التي لا تتوقّف خلال النهار، يهدأ فيها الآن ضجيج حركة السير، ولا يبقى سوى أزيز منفرد لشاحنة تعبر الطريق الساحليّ من حين لآخر. كما لا يسمع في صمت الليل إلّا طنين مصنع الحديد الذي يهيمن على المدينة بأضوائه القمريّة كأنّه شبح حارسٍ جبّار. سمع صدى أبواب السيّارة الذي تردّد منهكاً في الرواق، ثمّ صوت مزلاق الباب الجرّار وهو ينفتح. بدا له أيضاً أنّه يشمّ رائحة رطوبة الليل على ثياب الناس، الشبيهة برائحة الحموضة الكريهة التي تفوح من

غرفة النوم بعد أن ينام فيها الإنسان. كان عدد رجال الشرطة أربعة وكانت وجوهم مغبرّة، كانوا أربعة فتية بشعر غامق، يتحرّكون كالسائرين في المنام، لم يتفوّهوا ببنت شفة، بينما تمتم الخامس الذي بقي في الخارج في الظلام بكلمات لم يتمكّن سبينو من فهمها. عندها خرج الأربعة وهم يسيرون كمن لا يعرف ماذا يفعل، ظنّ أنّه كمن يتفرّج على رقصة جنائزيّة رشيقة لا يفهم قواعدها.

عادوا ودخلوا من جديد وهم يحملون الجثّة على حمّالة، جرى كلّ شيء بصمت مطبق: عندما نقلوا الجثّة عن الحمّالة وضعها على الصفيحة المضادّة للصدأ، ثمّ فتح اليدين المتصلّبتين وأغلق الفكين وضمّهما برباطٍ إلى الرأس: ولم يسأل شيئاً لأنّ كلّ شيء كان واضحاً كلّ الوضوح، وماذا يهمّه من آليّة الأحداث؟ اكتفى بتسجيل ساعة الدخول في السجلّ، ثمّ قرع الجرس الذي يرنّ في الطابق الأوّل ليستدعي الطبيب المناوب الذي عليه أن يتحقّق من الوفاة، بينما جلس الفتية الأربعة على الأريكة المطليّة بالمينا وهم يدخّنون. بدوا كأنّهم غرقى، وأخيراً نزل الطبيب وبدأ بالحديث والكتابة، نظر إلى الفتى الخامس الذي كان جريحاً وهو يتلوّى من الألم ويشكو بصمت. كلّم سبينو المستشفى الجديد بالهاتف وطلب أن يحضّروا غرفة العمليّات على وجه السرعة، وقال إنّه سيرسل الجريح في الحال، "لأنّه ليس لدينا هنا حتّى أدوات طبيّة، بقينا مجرّد مشرحة."

خرج الطبيب بعدها عبر درج الخدمات، وهنا تجشّأ أحد الفتية وتمتم: "يا أمّي" وهو يضغط براحتي يديه على عينيه كما لو أنّه يريد أن يمحو منظراً بقي محفوراً فيهما. شعر عندها بالإرهاق يغلبه كما لو أنّه يحمل على كتفيه تعب كلّ من حوله، وعندما خرج إلى الرواق وجد أنّ الرواق مرهقٌ أيضاً، وجدران ذلك المستشفى القديم مرهقة، بل حتّى النوافذ، والمدينة، وكلّ شيء، وعندما حوّل نظره نحو الأعلى بدا له أنّ النجوم كانت مرهقة ورغب في أن يكون هناك استثناء ما، على سبيل التأجيل أو السهو.

مکسو ۲۸۹

٤

تمشّى طيلة الصباح على طول الميناء ووصل حتّى الجمارك والموانئ التجاريّة. كانت هناك باخرة قبيحة المنظر كُتب على مؤخّرتها "ليبيريا" تفرّغ أكياساً وصناديق. كان هناك زنجيّ يراقب عمليّة التفريغ وهو يستند إلى متراس الباخرة، ما إن أرسل إليه إشارة تحيّة حتّى بادر إلى ردّها. زحفت من البحر غيمة منخفضة وصلت إلى اليابسة بمجرّد لحظة وغطّت المنارة والرافعات التي غابت حالاً وراء الضباب. أصبح الميناء قاتم المظهر ولمع الحديد. اجتاز ساحة فيتّوفاليبه وتوجّه نحو المصاعد التي تقود إلى أعلى التلال المنتصبة وراء مجموعة الأبنية التي تبدو كأنّها حصنٌ حول المدينة. لم يكن هناك أحد في تلك الساعة يستعمل المصاعد، فهي لا تمتلئ إلّا في ساعات ما بعد الظهيرة عندما يعود الناس إلى بيوتهم من العمل. كان مُشغِّلُ المصعد رجلاً عجوزاً يرتدي بزّة سوداء بلون الدخان، يده خشبيّة لأنّه من متضرّري الحرب، وفي الواقع فهو يضع على صدره

علامةً تشير إلى أنّه عاجزٌ بسبب الحرب. كان ماهراً ويستطيع أن يحرّك بيد واحدة أذرعة المصعد والدائرة الحديديّة الغريبة الشبيهة بمقود الترام. تجري الكابين خلال المقطع الأوّل من الرحلة على سكّة شبيهة بسكّة التليفريك، يسمح الزجاج بعدها بمشاهدة الجدران الرئيسيّة لبيوت تبدو كأنّها فسحات صغيرة قاتمة كبيوت القطط، تظهر أيضاً أبواب أروقة يظهر في بعضها حوض مياه أو درّاجة صدئة، أو نبتات خبّيزة وريحان مزروعة في علب طون. ثمّ تنفتح الجدران على حين غفلة: كما لو أنّ المصعد قد اقتحم السقوف ليتّجه مباشرة نحو السماء، فيشعر المرء للحظة بأنّه معلّق في الفراغ، ومع انزلاق كابلات الجرّ بصمت وسكون، تبتعد في الأسفل مناظر الميناء والأبنية، ويكاد يتكوّن انطباع بأنّ المصعد لن يتوقّف أبداً، لأنّ قانون الجاذبيّة قانون أخرق والمدينة مجرّد دمية يحسُن ألّا يتعوّد المرء عليها.

توقّفنا على شرفة حديقة بائسة عليها رفراف مثل المحطّات الموجودة في الجبال، كان هناك أيضاً مقعد خشبيّ محفور من جذع شجرة، وإن لم يلتفت المرء ليشاهد البحر فقد يتوهّم أنّه موجود في سويسرا أو على مرتفعات بحيرة ألمانيّة. ينطلق من المكان دربٌ يقود إلى مطعم هنغاريّ، وبالفعل كان اسمه "هنغاريا" كانت فيه امرأة عجوزٌ جميلة لكنّ زوجها عصبيّ، وهما يتكلّمان مع الزبائن بإيطاليّة مرجرجة بينما يتشاجران بالهنغاريّة، من يدري لماذا يصرّان على إبقاء هذا الشاليه البائس

مفتوحاً، خاصّة أنّ سبينو يجد المحلّ مقفراً في كلّ مرّة يزوره. لكنّ العجوز ودودة وتناديه السيّد القبطان، غريبٌ بالفعل أن تناديه دائماً بالسيّد القبطان.

جلس إلى طاولة قرب النافذة، وكان أمراً لا يصدّق أنّ صوت صافرات البواخر يصل إلى ذلك الارتفاع أصفى ممّا لو كان قريباً، طلب طبق طعام ثمّ القهوة التي تحضّرها المرأة على الطريقة التركيّة وتقدّمها بفناجين ضخمة من البورسلان الأزرق ربّما كانت من بقايا صباها في هنغاريا.

بعد الغداء وضع رأسه بين يديه وجلس يستريح وهو مفتوح العينين، لكنّه كان كالمخدّرين، كالنائمين، لا يشعر بشيء. بقي على هذه الحال وهو يتأمّل الزمن يتدفّق ببطء. أطلّ عصفور الساعة التي تعلو باب المطبخ وغنّى خمس مرّات. جاءته العجوز بإبريق شاي ملفوف ضمن قطعة من قماش اللبّاد، فبدأ يرتشف الشاي. أمّا العجوز فكان يلعب وحده على طاولة مجاورة بالورق ويرمقه بين الحين والآخر بنظرة من عينيه المنغوليّتين وهو يغمز مبتسماً من ورقه الذي لا يستجيب. دعاه ليلعبا معاً فلعبا "البريسكولا" وأظهرا اهتماماً باللعب وكأنّه أهمّ شيء في الوجود، وعليه يتوقّف مصير أمرٍ لا يعرفان ماهو لكنّه أكبر من واقع حياتهما. عندما خيّمت زرقة الغروب أنارت العجوز الأضواء الموجودة خلف مكتب الاستقبال والموضوعة ضمن واقيتين من الورق مرصّعتين بوسخ الذباب يحملهما سنجابان محنّطان، كان هذا منظراً غريباً

في ذلك المطعم المشرف على مدينة ساحليّة.

كلّم بالهاتف كورّادو لكنّه لم يجده في مكتب التحرير، ثمّ وجدوه في المطبعة. بدا له كأنّه منفعل بعض الشيء. "أين انتهى بك الأمر؟" صاح كورّادو بصوت مرتفع لكي يغطّي ضجيج آلات المطبعة، "طيلة النهار وأنا أبحث عنك." أجابه سبينو إنّه يجلس الآن وحيداً في مطعم "هنغاريا" وسيكون سعيداً إذا أراد أن يلحق به. أجاب كورّادو بأنّه لا يستطيع، قالها كأنّما ليتملّص من الأمر بل وربّما ببعض الانزعاج. برّر هذا بأنّ الجريدة يجب أن تُطبع الآن، لكنّ الأخبار المحليّة ما زالت على المسوّدة مكتوبة بصيغة بيانات رسميّة، وخاصّة ذلك الخبر الذي ستقرأه المدينة برمّتها في صباح الغد. قال إنّه عمل طيلة النهار على تجميع الوقائع دون أن يتمكّن من كتابة مقطع معقول، لأنّ المحرّر الذي أرسله إلى مكان الحدث عاد برواية مضطربة، وقال إنّ الناس هناك لا يعرفون شيئاً والحديث مع الشرطة كان أصعب من زيارتهم خلال الليل، لو تمكّن من الاجتماع به قبل ذلك بقليل لسأله عن بعض التفاصيل خاصّة أنّه كان مناوباً. أنهى حديثه وهو خائف: "لم يريدوا أن يخبروني حتّى باسم الشخص، لا أعرف سوى أنّه كان يحمل وثيقة مزوّرة."

صمت سبينو وهدأ كورّادو. كان يسمع عبر سمّاعة الهاتف ضجيج الآلات يهدر متواصلاً كالموج. "تعال إلى هنا من فضلك" استأنف كورّادو الحديث بغتة، بلهجة غير عدائيّة،

فتخيّل سبينو أنّه يرى التعابير التي ترتسم عادة على وجه صديقه في لحظات الاضطراب.

"لا أستطيع" أجاب، "آسف يا كورّادو، لكنّي لا أستطيع هذا المساء، سأعيد الاتّصال بك غداً أو بعد غد."

أجاب كورّادو "حسناً، على كلّ لن أتمكّن من تعديل المقطع في الوقت المناسب، يكفيني أن أحصل على الاسم، هل سمعت أنت بشيء ما هذه الليلة، هل تذكر أنّ أحداً لفظ اسماً ما؟."

كان ينظر إلى خارج النافذة وكان الليل ينسدل. كان شلّال من الأضواء ينهمر على طول الهضبة: إنّها أضواء السيّارات المتّجهة نحو المدينة. فكّر لبرهة بالليلة الماضية ولم يتمكّن من تذكّر أيّ شيء، وممّا يثير الفضول أنّ الصورة الوحيدة التي حضرت في ذهنه كانت صورة عربة تجرّها الخيول شاهدها مرّة في فيلم قديم وهي تخرج من الجانب الأيمن لشاشة العرض تتضخّم وكأنّها ستنقضّ عليه، كان وقتها طفلاً يشاهد الفيلم من المقعد الأمامي في سينما "أورورا"، كان هناك فارس مقنّع يلاحق العربة على صهوة جواده، وعندما شهر السائق بندقيّته انفجرت طلقة دوّت عبر الشاشة فأغمض عينيه.

قال له: "سمّه: الشخص."

٥

ظهرت المقالة في صحيفة أخبار البحر بدون توقيع، أعلنوا عنها في الصفحة الأولى ونشروها في صفحة داخليّة من صفحات المحلّيات على عمودين شغلا مساحة واسعة. في المقابل كانت هناك صورة الميّت. كانت صورةً صوّرتها الشرطة وتمكّن كورّادو من أخذها منهم، على كلٍّ كان يهمّ المحقّقين أيضاً أن تنشر الصورة لكي يستطيعوا أن يتعرّفوا إلى اسم صاحبها. وبالفعل فقد كتب تحت الصورة: "مجرم بدون اسم."

فتح الصحيفة على مائدة الطعام وأزاح بقايا فطوره بينما كانت سارة تدور بين الغرف الأخرى. "هل رأيت؟" صرخت عليه من المطبخ "يبدو أنّ أحداً لا يعرفه، لكنّ المقالة ليست لكورّادو، وهي ليست موقّعة."

كان يعرف أنّها ليست مقالة لكورّادو، وأنّ معلومات المقالة جمعها محرّر شابّ طموح جدّاً اهتمّ قبل أشهر بقضيّة الفساد في الموانئ فأثار فوضى عارمة. اكتفى بقراءة المقاطع الأساسيّة

وترك المقدّمات عن عالم الجريمة المليئة بالتعابير الروتينيّة المعتادة.

وقع هذه الليلة اشتباك مسلّح عنيف في مدينتنا، في الحيّ الشعبيّ من المرفأ، وفي شقّة في الطابق الأخير من بناء قديم في شارع كازِه دِيِنْتِهْ. فبعد ورود معلومات يحيطها المحقّقون بالتكتّم الشديد، قام خمسة رجال من القوّات الخاصّة في قوّات حفظ النظام بهجوم بعد منتصف الليل على الشقّة المذكورة.

أطلقت الشرطة صرخة تهديد: "افتحوا، شرطة!" عندها أقدم شاغلو الشقّة وعددهم غير محدّد على فتح نيرانهم عدّة مرّات من خلال الباب ما أدّى إلى جرح أحد العناصر جرحاً خطراً. وهو الشرطيّ أنطونيو دي نولا في السادسة والعشرين من عمره وهو يخدم في مدينتنا. وقد أجريت للشرطيّ عملية جراحيّة دقيقة. تمترس المجرمون في غرفة مجاورة للباب ثمّ انسحبوا عبر نافذتها وهربوا فوق الأسطح. لكنّهم قبل فرارهم أطلقوا النار على أحد زملائهم (وهذا من الجوانب الأشدّ غموضاً في هذه الحادثة). وقد لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة قبل وصوله إلى المستشفى القديم الذي نُقل إليه على جناح السرعة. لا تُعرف حتّى الآن هويّة هذا الرجل. ويبدو أنّه كان يحمل وثائق مزوّرة. وهو شابّ في حوالى العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره، لحيته كستنائيّة اللون، عيناه زرقاوان، متوسّط طول القامة. لكنّه عمليّاً غير معروف من سكّان المنطقة، رغم أنّه سكن هناك حوالى

سنة. كان يدّعي أنّه طالب باسم كارلو نوبولدي، لكنّ أحداً في أمانة سرّ الجامعة لم يعرف عنه شيئاً. أمّا أصحاب المحالّ في الحيّ فأكّدوا أنّه كان شخصاً مهذّباً وقويم السلوك يسدّد ما عليه بكلّ أمانة. الشقّة المؤلّفة من مكانين وملحق علويّ تملكها جمعيّة دينيّة استضافت الشابّ قبل سنة عندما تقدّم إليها على أنّه شخص فقير عاد لتوّه من الخارج. وقد رفض رئيس الجمعيّة الذي كان يتناول من المدعوّ نوبولدي مجرّد إيجار رمزيّ، رفض أن يقدّم أيّ تصريحات للصحافيّين. إنّ هذا الحادث الدمويّ الذي يضع مدينتنا ثانيةً على مسرح العنف وأخبار العنف، يعزّز الشعور بالاستياء في ضمائر المواطنين التي سبق أن أقلقتها أحداث أخرى جرت في الآونة الأخيرة.

وقفت سارة فوق كتفيه وانحنت فوقه ووضعت رأسها إلى جانب رأسه وبدأت بالقراءة. مرّرت أصابعها بين شعره علامة على تفهّمها وحنانها. بقيا لبرهة مأخوذيْن أمام صورة القتيل المجهول، ثمّ تركت عبارة تفلت من فمها أثارت في نفسه شيئاً من الخوف. قالت له "لو كنتَ بلحيةٍ، وعمرك أقلّ بعشرين سنة، لأمكن أن تكون هذه الصورة صورتَك."

لم يجبها، كما لو أنّه لا أهميّة لملاحظتها.

٦

وجد على الباب الجرّار بطاقةً من باسكوالِهْ: "سأعود حالاً."
كان يعرف أنّ باسكوالِهْ يذهب عادة في الحادية عشرة صباحاً لتناول القهوة. لذلك فضّل أن يلحق به بدلاً من أن ينتظره في الرواق، وهو يعرف أين يجده. كانت الشمس رائعة والطرقات مضيافة. كان قد خرج من المستشفى وعبَرَ الحارة المظلمة التي تفضي إلى الساحة حيث صُفّت الطاولات على شرفة المقهى. كان باسكوالِهْ جالساً وراء إحدى الطاولات يقرأ جريدته. لا بدّ أنّه أفزعه، لأنّه كاد يقفز من مكانه عندما جاءه من الخلف وكلّمه. ثمّ إنّه استسلم وطوى الصحيفة وترك بعض النقود على الطاولة قبل أن ينهض. سارا بهدوء كما لو أنّهما يتنزّهان، ثمّ قال باسكوالِهْ "إنّها قصّة مؤلمة" فأجاب سبينو "بالفعل"، فقال باسكوالِهْ "أريد أن أُدفن في بلدتي، أريد أن يضعوني هناك، تحت الجبل."

مرّت حافلة فغطّى ضجيجُها آخرَ الكلمات في حديثهما.

عبرا الحديقة الصغيرة التي رسمت فيها خطى الناس درباً بين الأعشاب التي يتجنّبون الدوس عليها. قال سبينو إنّه قد لا يذهب إلى مكتبه، لكنّه يودّ أن يعرف إن كان أحدهم حضر إلى المشرحة: قريب ما أو أحد المعارف. هزّ باسكوالِهْ رأسه بقرف وقال: "ما هذا العالم؟"، تمنّى عليه سبينو أن لا يغيب إذا أمكنه ذلك فأجاب باسكوالِهْ إنّ الأقارب عادة يراجعون الشرطة في البداية ولن يذهبوا حتماً إلى المستشفى. تفارقا عند التقاطع الذي تغرق فيه حارة الحديقة داخل بيوت مركز المدينة التاريخيّ، ثمّ توجّه نحو موقف حافلة الخط سبعة وثلاثين.

لم يكن كورّادو هناك، وهذا ما كان يخشاه سبينو. تخيّل أنّه ذهب حتماً إلى الموقع ليستطلع الأمر شخصيّاً، لعلّه يعرف المزيد، لأنّه لم يكن راضياً عن الأخبار التي جمعها المحرّر. تسكّع عبر مكاتب التحرير وهو يحيّي معارفه، لكنّ أحداً منهم لم يهتمّ به. كان الجوّ مفعماً بالعصبيّة ونفاد الصبر، فظنّ أنّ الحادثة هيمنت بثقل مأساتها على تلك الصالة وحوّلت الأشخاص إلى ناس محمومين ضعفاء. لكنّ شخصاً دخل من أحد الأبواب وهو يلوّح بورقة ويصرخ قائلاً إنّ العربات المدرّعة عبرت الحدود وسمّى مدينة آسيويّة يرجّح أن تكون غير موجودة على الخريطة. بعد ذلك بقليل توجّه أحد الصحافيّين العاملين على آلة إرسال النصوص نحو زميل له وأخبره أنّه تمّ توقيع الاتّفاقيّات وسمّى مدينة أخرى غريبة بعيدة، قد تكون في أفريقيا لا هنا، كالأولى

تماماً: فهم سبينو من هذا كلّه أنّ ذلك الميّت الذي كان يفكّر فيه لم يكن يهمّ أحداً في شيء، لأنّ تلك كانت ميتة صغيرة داخل بطن العالم الكبير، جثّةً تافهة بدون اسم وبدون تاريخ، أنقاضاً بقيت تحت بناء الأشياء، بقيّة حطام. عندما أدرك الأمر بدأ الضجيج يتلاشى من تلك القاعة الحديثة المليئة بالآلات، كما لو أنّ إدراكه ذاك حرّك مفتاحاً لتبطيء الحركات وخفض الأصوات. في وسط ذلك الصمت شعر بأنّه يتحرّك كأنّه سمكة وقعت في شبكة الصيد. وهنا ارتعش جسمه بحركة سريعة مباغتة فصدمت يدُه فنجان قهوة فارغا كان موضوعاً على إحدى الطاولات. أعادت قرقعة الشظايا على الأرض الصخب إلى القاعة، طلب سبينو المعذرة من صاحب الفنجان فابتسم له هذا كأنّه يقول إنّ هذا لا يهمّ، فخرج.

مكسو ٢٨٩

٧

ما زال بدون اسم ميّتُ شارع كازه دينته. كان هذا عنوان مقالة كورّادو التي ذيّلها بالحروف الأولى من اسمه. كانت مقالة رزينة لكنّها مترهّلة مليئة بالعبارات التقليديّة الجاهزة مثل: "غربلة المحقّقين، تمّ التحقّق من جميع المسارات، التحقيق يصل إلى نقطة ميّتة."

لاحظ سبينو التهكّم غير المقصود في الكلام عن نقطة ميّتة، لأنّ هناك ميّتاً بالفعل، لكن لا أحد يعرف من هو ولا يمكن اعتباره مدفوناً من الناحية القانونيّة. لا يوجد إلّا جثّة شابّ له لحية كثّة وأنف حادّ. بدأ سبينو يلوك تخيّلاته في رأسه. فالفتى وصل إلى المستشفى ميّتاً، لكن من يدري إن كان تمتم ببعض الكلمات داخل سيّارة الإسعاف: شتيمة مثلاً، أو تعوّذ، أو بعض الأسماء. ربّما نادى أمّه، كما يجري عادة، أو زوجته، أو ابنه. أجل، فقد يكون له ابن، لأنّه متزوّج، متزوّج بما أنّه يضع خاتماً في إصبعه، هذا إذا افترضنا أنّ الخاتم هو خاتمه، لكنّه خاتمه

حتماً لأنّه لا أحد يضع في إصبعه خاتم شخص آخر.

"لا"، قال كورّادو في مقالته، فهو لم يتفوّه خلال نقله إلى المستشفى بأيّ كلمة، لأنّه كان غائباً عن الوعي وميّتاً من الناحية العمليّة، وهذا ما شهد به رجال الشرطة الذين شاركوا في إطلاق النار.

تناول سبينو قلماً ووضع خطوطاً تحت العبارات التي تهمّه بالفعل.

أرسل المحقّقون صورته إلى جميع المخافر في إيطاليا، لكن لا يبدو أنّ أوصافه معروفة في ملفّات الشرطة... لو كان الشابّ منتمياً إلى بعض الجماعات التخريبيّة لكان يُفترض أن يظهر رفاقه بطريقة أو بأخرى... في هذه المرحلة من التحقيق لا يمكن القول بصورة مؤكّدة إنّ الشابّ إرهابيّ... في بعض الأوساط القضائيّة افتراضات بأنّ المعلومات التي وصلت إلى الشرطة قد تشير إلى عمليّة ثأر نفّذتها عصابات الجريمة العاديّة أو المنظّمة... بطاقة الهويّة التي وجدت مع المجهول تعود إلى I.F. من مدينة تورينو، وكانت قد فقدت قبل عامين وصُرّح عن ذلك بطريقة نظاميّة... في النهاية هناك بعض التفاصيل المثيرة للفضول تتعلّق باللافتة الموجودة على الباب، لافتة من البلاستيك يمكن لأيّ أحد أن يصنعها بآلته الخاصّة، وقد كتب عليها: كارلو نوبودي، لا نوبولدي كما قيل البارحة بطريقة خاطئة. لا بدّ من أنّ الاسم مزيّف وأنّه ترجمة لكلمة إنكليزيّة مقصودة تعني "لا

أحد"[1]. (ملاحظة التحرير)...

تذكّر فجأة الخاتم. اتّصل بواسطة الهاتف بالقسم الذي يعمل فيه بالمستشفى فأجابه صوت باسكوالِهْ.

"هل ما زال الخاتم في يده؟"

"من يتكلّم؟ ماذا تريد؟"

"أنا سبينو، أريد أن أعرف إن كان الخاتم ما زال في إصبعه."

"أيّ خاتم، ماذا تعني؟"

"لا يهمّ، سآتي بعد قليل."

"هل جاء أحد؟" سأله سبينو.

أشار باسكوالِهْ برأسه بالنفي ورفع عينيه نحو السقف مستسلماً، كما لو ليقول إنّ الميّت يجب أن يبقى هناك. ملابسه في الدولاب، تركتها المباحث الجنائية لأنّهم لم يروا أيّ أهميّة لها، كما لم يحاولوا تفتيشها كما يجب، وإلّا كان لا بدّ من أن يعثروا على صورة كانت في جيبه، أشار إليها، لقد وضعها تحت زجاج طاولة المكتب. كانت صورة صغيرة بحجم طابع البريد، ولا بدّ من أنّها قديمة، لكن يجب تسليمها للشرطيّ المناوب، هو الآن غير موجود، بقي هنا في الفترة الأولى من الصباح ثمّ استدعوه لعمل طارئ، لأنّه يقوم أيضاً بأعمال الدوريّات.

على عكس ما كان سبينو يتصّور لم يكن من الصعب سحب

---

١ *no body* (م)

الخاتم من إصبع الميّت، فيداه لم تنتفخا كما أنّ الحلقة بدت أعرض من الإصبع. وكما كان متوقّعاً، كان هناك في الطرف الداخليّ اسم وتاريخ: "بييترو، ١٩٣٩/٤/١٢" استيقظ باسكواله من غفوته وجاء ليتفرّج. كان يمضغ قطعة سكّر، غمغم بكلمات غير مفهومة، عرض عليه سبينو الخاتم فنظر إليه نظرة استفهام.

همس باسكواله قائلاً "عمَّ تبحث وماذا تتقصّى، لماذا كلّ هذا الاهتمام بمعرفة هوّيته؟"

٨

ركبا الحافلة في ساحة بارلاسولو[١] كانت الساعة تحت البرج تقترب من الثامنة، وكانت الساحة هادئة كما هو الأمر عادة يوم الأحد، بل كادت تكون هذه المرّة مقفرة. وقفت الحافلات الثلاث بعضها وراء بعض ومحرّكاتها شغّالة وقد كُتب في مقدّمة كلّ منها اسم وجهتها. عندما دقّت الساعة ثماني دقّات طوى السائق صحيفته وشغّل آليّة إغلاق الأبواب ثمّ حرّك الحافلة. جلسا في الأمام قرب السائق، وجلست سارة على النافذة. كان على المقعد الخلفيّ مجموعة كشّافة، وفي منتصف الممرّ عجوزان بملابس العيد.

حملت سارة معها السندويتش وكان على حضنها دليل سياحيّ ملوّن على غلافه صورة وردة حجريّة: "الكنائس الرومانيّة في الجوار." عبرت الحافلةُ الطريقَ الساحليةّ شبه المقفرة، كانت

---

١ قد يكون هناك مغزى معيّن في اختيار اسم الساحة الذي يعني "المتكلّم مع نفسه". (م)

إشارات المرور متوقّفة آنئذ عن العمل، لذلك كان السائق يخفّف السرعة عند مفترقات الطرق. بعد أن تجاوزوا سوق الورد دخلوا في طريق عريضة تصعد بسرعة على شكل حلزونيّ واسع، وفي دقائق وصلوا إلى منتصف الشاطئ خارج المدينة على طول قناة مائيّة قديمة مصنوعة من الآجرّ. وفي غضون دقيقة واحدة أصبحوا في ريف الضاحية الذي تعمّه الأحراج وحدائق متراكبة وبساتين زيتون وأشجار آكاسيا وميموزا بدت أنّها ستزهر قبل الموعد. كانا ينظران إلى الأسفل ليشاهدا البحر والشاطئ الأزرقيْن المبرقعيْن بخمار من ضباب خفيف لم يكن واضحاً في المدينة.

أغمضت سارة عينيها، وربّما نامت، هو أيضاً كان ينظر بعينين شبه مغمضتين وهو راكن إلى هزّات الحافلة يتأرجح معها، كانت فرقة الكشّافة قد تركت الحافلة في موقف قبل البلدة أمام صورة للنذور، ثمّ عبرت الحافلة البلدة واستدارت حول الساحة قبل أن تتوقّف داخل المربّع الأصفر المرسوم قرب الرصيف.

قبل البدء بتسلّق الطريق تناولا القهوة داخل محلّ في الساحة لبيع الألبان، نظرت إليهما المرأة من خلف منصّة التقديم بفضول أشبعاه حالاً عندما سألا عن الطريق المؤدّية إلى المعبد، تحدّثت بلهجة حادّة ومتوحّشة نوعاً ما وهي تكشف أسنانها المخلوعة، وكان من الواضح أنّها تنصحهما بتناول الغداء في مطعم ابنتها، لأنّ الطبخ هناك لذيذ وسعره اقتصاديّ.

لكنّهما فضّلا السير على الطريق المرسومة في الدليل السياحيّ الذي طبعته دار نشر "بيفي"، فهي طريق جميلة رغم انحدارها الشديد، تشرف على مناظر الخليج والمناطق الداخليّة. برز البرج فجأة بين أشجار السنديان بألوانه الورديّة والبيضاء، وهنا أخذت سارة بيد سبينو وسحبته نحوها كما لو أنّهما ولدان خرجا من المدرسة.

كان فناء الكنيسة مرصوفاً بألواح حجريّة نمت الأعشاب بين صفوفها، وهناك جدار آجرّيّ منخفض يفصل الفناء عن بروز البناء. بدا الأفق في الأعالي عريضاً وهو يصل الخليج بالآخر، وكانت نسائم البحر تصل قويّة عنيفة. على الواجهة قرب البوّابة كانت هناك بلاطة نقشت عليها عبارات تخبر عن مسيرة دينيّة توجّهت في عام الرحمة ١٣٢٥ نحو البحر وهي تحمل صورة العذراء المحفوظة في المعبد. بعد تلك المسيرة اندحر الطاعون الرهيب الذي أصاب الوادي. منذ ذلك الحين يعتبر الناس تلك العذراء حامية الخليج. كما حفظت البلاطة ذكرى وضع الحجر الأساس للدير في ١٢ حزيران ١٣٢٥. بدأت سارة تقرأ بصوت مرتفع من الدليل الذي تحمله وطلبت منه أن يصغي إليها.

كانت الشمس حارّة، أرادا تناول السندويتش فاستلقيا على أرض معشوشبة في آخر الفناء. كان هناك صليب من حديد منصوب على قاعدة حجريّة تخلّد الزيارة الأسقفيّة المجيدة التي جرت عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر للتعبير عن الشكر على انتهاء

الحرب والنصر. أكلا بتأنٍّ وعلى مهل مستمتعين بوجودهما في ذلك المكان. بدأت الشمس تدور حول قمّة الكنيسة وهي ترسل ضوءاً خافتاً غطّى الشاطئ. حينها دخلا إلى الكنيسة من باب جانبيّ قرب المذبح، حيث تصوّر لوحة جداريّة فارساً يمتطي صهوة حصان أبيض يعبُر مشهداً طبيعيّاً. تهيمن على المشهد صورة رمزيّة ساذجة على خلفيّةٍ رُسمت على يسارها مناظر احتفاليّة وأراضٍ بور، ومناظر حرائق ومشانق على اليمين. استدارا بعد ذلك حول الممرّات وهما ينظران إلى لوحات النذور المعلّقة على الجدران. كان أكثرها يصوّر مواضيع بحريّة: غرق، رؤى إعجازيّة عن نجاة من العواصف، سفن شراعيّة أتت الصواعق على صواريها لكنّها تعود وتهتدي إلى مسارها بفضل معجزة تقوم بها العذراء، وقد رسمت صورتها المقدّسة بين الغيوم المكفهرّة، رأسها مغطّى بخمار أزرق كما في الأيقونات الشعبيّة، بينما تخترق يدها اليمنى السحب لتحمي سفينة تتقاذفها الأمواج. وقد ملأت اللوحات كلمات تعبّر عن التقديس والإخلاص.

عندما دقّ الناقوس خرج الخوري من غرفته ليقيم شعائر صلاة بعد الظهيرة. جلسا جانباً قرب كوّة الاعتراف لقراءة العبارات المكتوبة على بلاطات الجدران. ثمّ لحقا بالخوري في غرفته عندما كان يخلع عنه الثياب الكهنوتيّة، فدعاهما إلى مكتبه المجاور لغرف الدير المهجورة، قرب المطعم. ربّما ظنّ أنّهما عريسان مسنّان من يدري أيّ نوع من النصائح يريدان، أو

ربّما كانا سائحيْن دفعهما الفضول لهذه الزيارة. أجلسهما على أريكة الغرفة الفارغة إلّا من طاولة دكناء اللون وآلة أرغن صغيرة ومكتبة مليئة بالكتب. كان على الطاولة كتاب عن العلاقة بين القَدَر وأوراق اللعب، وفي داخل الكتاب ورقة كستناء وضعت كعلامة. قال سبينو إنّهما جاءا للسؤال عن شخص ميّت، ففهم الخوري في الحال وسأله إن كانا من أقربائه أو معارفه. على الإطلاق، أجابه، فهو لم يعرفه إلّا وهو ميّت، وهو الآن محفوظ كالسمك في الثلّاجة، لذلك لا بدّ من دفنه. هزّ الخوري رأسه موافقاً، كان يظنّ أنّه فهم من وجهة نظره، وربّما كان أحبّ تديّنه وإيمانه لو عبّر عنهما شخص آخر. لكن ماذا بوسعه أن يقول. أجل، لقد عرفه، لكن ليس بمعنى السجلّ المدني، لأنّه كان يظنّ دائماً أنّ اسمه كارلو، وربّما كان هذا هو اسمه بالفعل. وهو لا يمكن أن يقول عنه إلّا أنّه كان فتى مهذّباً، يحبّ الدراسة، ادّعى أنّه فقير فساعدته الجمعيّة. لا يعرف إن كان وُلد حقّاً في الأرجنتين كما كان يدّعي رغم أنّ أحداً لم يشكّ في أقواله، ولماذا الشكّ؟ كان كثير المطالعة خلال شهريْ إقامته في الدير، كما تناقشا كثيراً. ثمّ إنّه انتقل إلى المدينة بسبب الدراسة وهناك تابعت الجمعيّة تقديم المساعدة له على شكل صدقة مستورة. وقد أسفوا على سفره، كان شابّاً ذا ذكاء خارق.

حدّق في عيونهما بثبات، كما يفعل الخوارنة أحياناً. وسأله:

"لماذا تريد معلومات عنه؟"

"لأنّه ميّت وأنا حيّ" أجاب سبينو.

لا يعرف لماذا أجاب بهذا الجواب، بدا له أنّه الجواب الوحيد المعقول، لأنّه لا يوجد في الواقع أيّ تبرير آخر. وهنا شبك الخوريّ يديه فوق الطاولة، وعندما مدّهما كشفت عباءته البيضاء عن معصمين أبيضين أيضاً، وبدأ يفرك أصابعه.

"كتب لي"، قال الخوري، "أظنّ أنّي سأعرض عليك الرسالة." فتح درجاً وتناول منه ظرفاً أزرق يحتوي على منظر لمدينة يراها سبينو كلّ يوم. مدّها إليه فقرأ الأسطر القليلة المكتوبة بخطّ عريض وطفوليّ نوعاً ما. سأل سبينو هل رأى الرسالة أحدٌ ما فهزّ الخوري رأسه مبتسماً كأنّه يريد أن يقول إنّ أحداً لم يهتمّ بالبحث عنه. قال "لا يمكنني أن أفيد كثيراً في التحقيقات، ثمّ إنّ الوصول إلى هنا مرهق جدّاً."

تبادلا بعض العبارات التقليديّة المتعلّقة بجمال المكان وتاريخ كنيسة بييفِه[1]، لكنّ سارة توسّعت في حديث ممتع مع الخوري عن الرسوم الجداريّة، وقد اكتفى سبينو بالاستماع إلى خبراتهما وهما يتكلّمان بطلاقة عن الفارس، الملاك، الموت، المشنوق، ثمّ قال وهو يشير إلى الكتاب إنّ ممّا يثير الفضول أنّ صوره هي من الصور التي ترسم عادة على أوراق اللعب، وأضاف "لا أعرف إن كان الأمر سيعجبك أيّها الأب فهذا الكتاب يتحدّث

---

١ Pieve (م)

عن التوليفات الغريبة في الحياة."

ابتسم الخوري ونظر إليه نظرة عطف وتسامح. وقال "لا يعلم إلّا الله وحده جميع توليفات الوجود، وعلينا فقط أنْ نختار توليفتنا الخاصّة بنا بين كلّ التوليفات الممكنة، نحن فقط." قال هذه العبارة ودفع بالكتاب نحو محدِّثه.

تناوله سبينو وحاول المزاح ففتح الكتاب على غير تعيين وبدون أن ينظر إليه. قال: "الصفحة السادسة والأربعون" ثم قرأ المقطع الأوّل بصوت عريض كأنّه يمثّل دور العرّاف. ضحكا أدباً كما يحدث بعد عبارات المزاح، وكان من الواضح أنّ ضحكتهما كانت نوعاً من إنهاء الجلسة، وهكذا طلبا الإذن فرافقهما الخوري حتّى الباب، كانت السماء تظلم فأسرعا في النزول خاصّة بعد أن سمعا زمّور الحافلة الذي كان يعلن في الساحة قرب الانطلاق.

استرخت سارة على المقعد بتنهيدة سرور ثمّ لفّت شعرها بنوع من خبث الإغراء. قالت "علينا أن نأخذ إجازة، إنّنا بحاجة إلى إجازة." فدمدم دون أن يقول شيئاً وأسند رأسه إلى الخلف. أطفأ السائق الأضواء الداخليّة وتركت الحافلةُ البلدة بسرعة لتنطلق بمحاذاة الشاطئ. أغلق سبينو عينيه وفكّر بالقدر، بعبارات ذلك الكتاب التي قرأها، وبالتوليفات اللامتناهية الموجودة في هذه الحياة. عندما فتحهما من جديد كانت الحافلة تسير وسط الليل الدامس بينما نامت سارة ورأسها على كتفه.

٩

عندما رآه منزوياً خلف مكتبه، بهيئة الطفل العبوس التي يتّخذها كورّادو عادة عندما ينهمك في عمله، فكّر سبينو أنّ صديقه يهوى نوعاً ما تمثيل دور رئيس التحرير المستكلب الذي مثّلته شخصيّةٌ شاهداها معاً في السينما كثيراً من المرّات. جاء سبينو وقد حضّر نفسه كي يروي له حكاية رحلة يوم الأحد. وكانت جريدة الصباح لا تنشر عادة صباح الاثنين إلّا أخبار كرة القدم ولا تتطرّق إلى أخبار مهمّة. كان بودّه أن يقول لكورّادو إنّ سارة قد تسافر في إجازة قصيرة، لذلك فإنّ بوسعه أن يوظّفه إذا رغب في ذلك مفتّشاً خاصّاً يعمل لديه دون أجر، وهذه فرصة لا يمكنه أن يهدرها.

لكن ما إن قال كورّادو: "التالي" وهو يشير إلى الرقم اثنين بالسبّابة والوسطى، حتّى فقد سبينو بغتة رغبته في الكلام وجلس ينتظر دون أن يقوى على قول شيء.

"لقد مات الشرطيّ هذه الليلة" قال وهو يقوم بحركة مقصّ

بيده تعني التعادل أو نهاية القصّة. خيّم صمت طويل بدأ كورّادو بعده بتصفّح مغلّف في يده كما لو أنّه تمّ إغلاق الموضوع. ثمّ خلع نظارته وقال بهدوء: "الجنازة غداً، الجثّة موجودة في غرفة تشييع أقيمت في الثكنة، وقد بثّت وكالات الأنباء برقيّات التعزية التي أرسلتها مختلف السلطات." أعاد المغلّف إلى الرفّ وأدخل ورقة في الآلة الكاتبة. قال: "عليّ أن أكتب المقالة، سأكتبها بنفسي لأنّي لا أريد مضايقات، أخبار فقط دون افتراضات ولا لفّ ودوران."

عندما همّ بالكتابة وضع سبينو يده فوق الآلة، وقال له: "اسمع يا كورّادو، لقد تكلّمت البارحة مع خوري كان يعرفه، وقرأت رسالة منه، كان شخصاً حسّاساً، والقضيّة ليست بسيطة كما يمكن أن تظهر."

انتفض كورّادو كالنابض وذهب نحو باب غرفته الزجاجيّة وأغلقه. "آه، كان حسّاساً إذاً" هتف وقد احمرّ وجهه. لم يجب سبينو بل هزّ رأسه استنكاراً، كما لو أنّه لم يفهم الملاحظة. عندها طلب منه كورّادو أن ينتبه جيّداً، لأنّ هناك فرضيّتين فقط. الفرضيّة الأولى: عندما وصلت الشرطة كان الميّت قد مات. والواقع أنّ الفتى مات على باب الدخول. كما أنّ المسدّس الذي قتله وقتل الشرطيّ أيضاً نفدت منه ستّ طلقات وعُثر عليه على شرفة المطبخ في صدر الممرّ الصغير. فكيف يمكن لشخص ميّت أن يتراجع عبر كلّ الممرّ ليذهب إلى الشرفة ويترك المسدّس

عليها؟ الفرضيّة الثانية: كان الشخص الذي كان يشهر المسدّس ينتظر على الشرفة. أمّا إن كان الفتى يعرف أو لا يعرف فهذا لا يمكن تحديده. في لحظة ما قرع رجال الشرطة على الباب فذهب الفتى باطمئنان ليفتحه. في تلك اللحظة ظهر المسدّس من حلكة الليل وأطلق النار مراراً على الفتى وعلى الشرطة. إذاً من كان ذلك الميّت؟ هل كان طعماً جاهلاً؟ أم طعماً عارفاً؟ مسكيناً أحمق؟ شخصاً لا علاقة له البتّة بالأمر؟ شاهداً مزعجاً؟ أم أمراً آخر وآخر؟ كلّ الفرضيات ممكنة. أم هي قضيّة إرهاب؟ ربّما. لكن يمكن أن يكون السبب مختلفاً: ثأر، خدعة، أمور سرّية، ابتزاز، من يدري. ربّما كان الفتى مفتاح كلّ شيء. لكن يمكن أن يكون أيضاً مجرّد ضحيّة وقربان، أو شخصاً وقع في مفترق طرق الأقدار. هناك أمر واحد كان كورّادو على ثقة منه: من الأفضل تجاهل الأمر. "لكن لا يمكن ترك الناس يموتون في العدم" قال سبينو، "هذا يعني كما لو أنّ المرء مات مرّتين."

نهض كورّادو وسحب صديقه بلطف من ذراعه وساقه حتّى بلغا الباب. بدت عليه علامات فقدان الصبر وهو يشير إلى الساعة على الجدار. "لكن عمَّ تبحث؟" قال له وهو يدفعه نحو الخارج.

١٠

عندما يطلّ الصيف في سان مارتينو يكون الشتاء قد قرع الأبواب. هذا ما كان يسمعه سبينو من بعضهم عندما كان صغيراً، وعبثاً كان يحاول أن يتذكّر من القائل. فكّر بالأمر وهو على رصيف المحطّة التي كان تعصف بها هبّات رياح باردة هزّت ذراعه بينما كان حجم القطار يكبر على المنعطف. فكّر أيضاً أنّه يمكن أن تحدث أمور كثيرة خلال ثلاثة أيّام. وكان في داخله صوت طفوليّ يقول متضاحكاً: ثلاثة أيتام صغار! ثلاثة أيتام صغار[١]! كان صوتاً مدوّياً خبيثاً، لكنّه غريب عنه، موجود في زمن سحيق تحفظ الذكريات منه القلق والاضطراب لا الأحداث التي سبّبتها. خرج وهو ينظر إلى مربّع ساعة الواجهة المضيء ويقول في قرارة نفسه: غداً سيكون يوماً آخر.

ذهبت سارة في إجازة، بعد أن نصحها سبينو بالمشاركة في

١ إشارة على الأرجح إلى فيلم كرتون لوالت ديزني "الأيتام الثلاثة" أو "ثلاث قطط يتيمة صغيرة". (م)

رحلة مدّتها ثلاثة أيّام نظّمتها مدرستها إلى البحيرة الكبيرة[١] تمنّى عليها أن ترسل له بطاقات مصوّرة من دوينو[٢] فابتسمت ابتسامة تواطؤ لأنّها فهمت أنّها زلّة لسان. لو كان لديهما مزيد من الوقت لتحدّثا عن الأمر، وكانا كثيراً ما يتحدّثان عن ريلكه[٣]، وهو يرغب الآن في الحديث عن قصيدة موضوعها صورة الأب كان يكرّرها طيلة النهار عن ظهر قلب.

عندما وصل إلى البيت جهّز أدواته في المطبخ حيث العمل أفضل من العمل في المستودع الصغير الذي توجد فيه غرفة التحميض المظلمة. وكان قد ذهب بعد الظهيرة لشراء موادّ التحميض وحوض بلاستيك من قسم الحدائق في المخازن الكبيرة. بعد أن وضع الأوراق على مائدة الطعام، فتح حامل العدسة المكبّرة إلى أقصى حدّ ممكن، وذلك ليحصل على صورة بحجم ثلاثين بأربعين سنتمتراً، أدخل بعدها المسوّدة الصغيرة التي صوّرها في مخبر موثوق.

طبع الصورة بكاملها وترك المكبّر يعمل لبضع ثوان أكثر من اللازم لأنّ المسوّدة كانت فاتحة اللون. بدا أنّ محيط الصورة يمتنع عن التبلور داخل حوض التحميض، كما لو أنّه شخص

---

١ Lago Maggiore أو Lago Verbano بحيرة كبيرة في جنوب جبال الألب بين إيطاليا وسويسرا. (م)

٢ دوينو مدينة إيطالية على الحدود مع يوغسلافيا السابقة أي بعيداً عن البحيرة. (م)

٣ Rilke (١٨٧٥ – ١٩٢٦) كاتب وشاعر نمساوي كتب بالألمانيّة. (م)

من أفراد عائلة مالكة قديمة فَنِيَ وعفى عليه الزمان، وهو الآن لا يقبل أن يُبعث من جديد، لأنّه يأبى أن يتدنّس بنظرات الغرباء الفضوليّة وأن يستيقظ في مكان غريب عليه. لهذا شعر سبينو بأنّ تلك المجوعة العائليّة الموجودة في الصورة ترفض أن تعود للظهور على منصّة الصور لمجرّد تلبية فضول شخص غريب، في مكان غريب، وفي زمان لم يعد زمانها. أدرك أيضاً أنّ ما يقوم به الآن هو نوع من استحضار الأشباح بواسطة خدعة الكيمياء الحقيرة. لقد رأى أنّ وجودهم في تلك الصورة يعني أنّهم أجبروا على نوع من التواطؤ وعلى تسوية مريبة وقّعوها عن جهل بمجرّد وقوفهم آنذاك أمام عدسة ذلك المصوّر. يا لها من فضيلةٍ تعيسة فضيلةُ الصور الآنيّة! وها هم يبتسمون. تلك الابتسامةً هي له الآن، حتّى لو كانوا لا يريدون ذلك. إنّ حميميّة تلك اللحظة من حياتهم، تلك اللحظة التي لن تتكرّر، أصبحت الآن ملكه. لقد تمدّدت عبر الزمن لكنّها بقيت على حالها، وها هي الآن تقطر معلّقةً على حبل يمتدّ عبر المطبخ ويمكن أن تُعرض لمرّات لامتناهية. هناك خدشٌ على الصورة كبّرته العدسة بنسبة كبيرة، يمرّ على أجسامهم ويعبر على عرض الصورة كامل المكان. كان خدشاً غير مقصود أحدثه ظفر، أو بسبب تهالُك الأشياء المحتوم، أو هو أثر معدن (مفاتيح، ساعات، ولّاعات) تعايشت معه تلك الوجوه عندما كان في الجيوب أو الأدراج؟ أو هو علامة مقصودة أحدثتها يدٌ أرادت محو ذلك الماضي؟

لكنّ ذلك الماضي موجود الآن على أيّ حال في حاضر آخر، ويخضع رغماً عنه للتفسير وفكّ الشيفرة. لقد أُخذت الصورة على شرفة بيت متواضع من بيوت الضاحية، الدرج من حجر، هناك نباتات تتسلّق بصعوبة دعامة الرواق وتلتفّ حولها لتتفتّح في زهور زرقاء جميلة. لا بدّ من أنّ الوقت حينها كان صيفاً: فالضوء يبدو باهراً وأشخاص الصورة يرتدون ملابس خفيفة. على وجه الرجل تعابير دهشة وألم في نفس الوقت. إنّه يرتدي قميصاً أبيض بكمّين ملفوفين، ويجلس خلف طاولة من الرخام، أمامه إبريق زجاجيّ وُضعت عليه صحيفة مطويّة من وسطها. لا بدّ من أنّه كان يقرأ عندما نادى عليه المصوّر بغتة ليطلب منه رفع نظره. كما خرجت الأمّ على العتبة في وقت مناسب لكي تدخل في الصورة دون أن تشعر بذلك. إنّها ترتدي مئزراً صغيراً مورّداً ووجهها نحيف. ما زالت شابّة صبيّة رغم أنّ صباها قد ولّى. هناك ولدان يجلسان على الدرج. للطفلة جديلتان أحرقتهما الشمس، تضع نظّارة طبّية محاطة بالسيلولويد، تنتعل قبقاباً. تحمل على حضنها دمية من قماش، ينتعل الولد صندلاً ويرتدي سروالاً قصيراً، كوعا يديه مسندان إلى ركبتيه وذقنه مسندة إلى يديه. وجهه مستدير، تبرق على شعره بعض تجعيداته، ركبتاه وسختان. يبرز من جيب سرواله طرف نقّافة. ينظر أمامه رغم أنّ نظراته تضيع وراء عدسة التصوير كما لو أنّه يتابع في الهواء رؤيةً رآها في السماء، أو "حدثاً" يجهله الأشخاص الآخرون

الموجودون معه في الصورة. ينظر بطرف خفيّ إلى الأعلى، تدلّ عليه مؤقتيْه دون أدنى إمكانيّة خطأ. ربّما كان ينظر إلى غيمة أو إلى قمّة شجرة. في الزاوية اليمنى حيث يستطيل درب ممهّد يعكس عليه سقف الشرفة عدّة درجات من الظلّ، يظهر جسم كلب ملتفّ على نفسه. ورغم أنّ عين المصوّر لا تبدو عابئةً بوجوده، فقد التقطته صدفة ضمن الصورة التي لم تظهر رأسه. إنّه كلب مبرقع بالسواد شبيه بكلاب الفوكس لكنّه هجين بكلّ تأكيد.

هناك أمر يثير قلقه في تلك الصورة الآنيّة الهادئة التي تجمع أشخاصاً مجهولين، أمر يبدو عصيّاً على عملية تفكيك الرموز التي يحاول القيام بها: هناك إشارة مخفيّة، عنصر قد يبدو غير ذي مغزى مع أنّه تمكّن من تخمين جلّ مكوّناته. ثمّ إنّ تفصيلاً معيّناً يجذبه فيقترب من الصورة: يرى عبر زجاج إبريق الماء تماوجَ حروف الصحيفة المطويّة التي كان يحملها الرجل: Sur. وهنا شعر بانفعال يغمره، كُتب أيضاً: الأرجنتين، إنّنا في الأرجنتين إذاً، ولماذا الانفعال؟ ما دخل الأرجنتين؟ لكنّه يعرف الآن على الأقلّ بماذا يحدّق ذلك الفتى. لأنّ وراء المصوّر فيلّا أنيقة غارقة في الخضرة، وهي ورديّة وبيضاء اللون. يحدّق الفتى بنافذة مصاريعها المغلقة، ويمكن لتلك المصاريع أن تنفتح ببطء، إذاً...

إذاً ماذا؟ لماذا يفكّر بهذه القصّة؟ ماذا يخترع خياله الذي

يتخفّى تحت ستار الذاكرة؟ في تلك اللحظة بالذات سمع في داخله صوتاً طفوليّاً لم يكن صوت تمثيل بل كان صوتاً حقيقيّاً، وكان ينادي بكلّ وضوح: "بسكويت! بسكويت!". بسكويت هو اسم كلب، ولا يمكن إلّا أن يكون هكذا.

١١

وصلوا إلى آخر شارع "الطلعة القديمة" حيث تتشتّت المدينة ضمن مناطقها الداخليّة، قبل أن تتراخى في سهول مائجة أمام حاجز المرتفعات الذي يقطع كلّ شكّ في انسيابيّتها. لم تصل إلى هنا بعد صبّات الخرسانة الإسمنتيّة، بل إنّ أبنية من العشرينيّات نجت من قنابل الحرب ما زالت باقية في المكان: فيلّات صغيرة ذات ديكور غريب تنمّ عن ذوق برجوازيّ صغير ارتقى نوعاً ما إلى ذوق النبلاء بفعل عوامل الزمن. هناك أيضاً بيوت أخرى أشدّ تواضعاً محاطة بأسوار وحدائق صغيرة، فيها خصل من نبات القصب الأصفر ترتفع قرب الشبك الفاصل بينها، كما لو أنّنا في الريف. الطريق الرئيسيّة محفوفة بصفوف من البيوت المتشابهة المتلاصقة المؤلّفة من طابقين ولها سلّم خارجي من الطوب، ونوافذ صغيرة. بُنيت هذه البيوت في العهد الفاشستيّ، ونشأ هذا الحيّ على أساس أنّه حيّ سكنيّ فخم لموظّفي البلديّات والإداريّين وصغار المهنيّين. وقد حفظ هذا المكان من ذلك

العالم لياقته وبؤسه معاً. ومع هذا هناك شيء من الحلاوة بقيت في المكان: هناك ساحة صغيرة مع بركة، أصص وأراجيح صدئة، مقعد تثرثر فوقه سيّدتان عجوزان ومعهما حقيبة المشتريات. جعلته هذه العذوبة المتواضعة الهادئة يشعر بأنّه إنسان غير معقول أو ربّما حتّى غير موجود، وهذا بالضبط ما يريده. قرأ في دليل الهاتف: "ف. بويريو، خيّاط، شارع كادورنا رقم ١٥" كانت سترة الميّت سترة قديمة من الجوخ الخشن، على الكوعين رقعتان من الجلد، ربّما خيطت قبل عشر سنين أو ربّما خمس عشرة سنة: لكنّ هذا يبقى دليلاً بلا معنى للوصول إلى شيء ما. ثمّ من يستطيع أن يؤكّد أنّ الخيّاط هو نفسه، فربّما كان هناك أكثر من بويريو يعملون خيّاطين في كثير من المدن الإيطاليّة.

كان يتقدّم على طول شارع ر. كادورنا وهو شارع ضيّق محفوف بأشجار اللايم، ومساكنه عبارة عن فيلّات صغيرة من طابقين تدلّ على رخاء قديم، لكنّ أكثرها تحتاج إلى طلي جدرانها ونوافذها، كما تدلّ حدائقها الصغيرة على قلّة العناية، هناك أيضاً غسيل منشور تحت بعض النوافذ. الرقم خمسة عشر هو رقم بيت بابُه من الحديد المشغول تحيط به نباتات بريّة متسلّقة. يحمي المدخل سقف صغير من الحديد المشغول أيضاً لكنّه ذو طابع شرقيّ نوعاً ما. هناك لافتة كتب عليها: دار خياطة بويريو. كانت حروف الكتابة مذهّبة في الأصل لكنّها اغبرّت وامتلأت بالبقع كأنّها مرآة قديمة.

تعلو وجه السيّد بويريو ابتسامة محبّبة، وهو يضع نظّارة بعدستين سميكتين تظهر وراءهما عينان صغيرتان غائرتان. يبدو أنّه محصّن بسبب عمره ببراءة منيعة، ربّما لأنّه على وعي أيضاً بأنّ الزمن قد فاته وأنّ أمره انقضى. ينفتح الباب الزجاجيّ على صالة واسعة مدهونة باللون الوردي المعتّق، نوافذها ضيّقة، وهناك غصن عنب مرسوم على طول إطار السقف. لا يوجد من الأثاث إلّا ما هو ضروريّ لوظيفة الغرفة: أريكة بطراز القرن التاسع عشر، مقعد من قشّ فيينّا، طاولة خيّاط في الزاوية. ثمّ بعض الآلات، عدّة مانيكانات نصفيّة منصوبة على مساند، موزّعة بعشوائية ومنتشرة في أنحاء الغرفة: حتّى إنّه فكّر لبرهة أنّ أولئك كانوا زبائن السيّد بويريو، شواهد واقعيّة على زمن مضى، تحوّلوا الآن إلى مانيكانات من خشب. بل إنّ بعضهم يحمل ملامح أشخاص حقيقيّين، بوجوه من الجصّ الورديّ الذي تحوّل إلى البنيّ، وهناك بعض الخدوش البيضاء على نتوءات الخدّين والأنف. رجالٌ فكوكهم مربّعة وسوالفهم قصيرة، تسريحات يظهرها الجصّ على أنّها مدهونة بالبريانتين، شفاه دقيقة وعيون معسولة شيئاً ما. عرض عليه السيّد بويريو بعض الكاتالوغات لاختيار الموديل. لا بدّ من أنّها كاتالوغات من الستّينيّات، فالسراويل ضيّقة ونهايات قبّات السترات طويلة. توقّف عند موديل أقلّ تفاهة، وأشدّ رصانة، ثمّ وضع سترة الميّت على مانيكان ودعا الخيّاط لمشاهدته. وقال له قد يمكن صنع قَصّةٍ مماثلة، ما رأيك؟

فكّر السيّد بويريو، ثمّ قلب فمه من الدهشة. "إنّها سترة رياضيّة" قال بلهجة الشكّ. "لا أعلم إن كانت هذه القَصّة مناسبة لثوب كالذي تريده." وافق على الرأي، لكنّ قَصَّة تلك السترة القديمة تبدو قَصَّة مثاليّة قد تكون صالحة حتّى كثوبٍ لما بعد الظهيرة. عرض عليه اسم الخيّاط المكتوب فوق الجيب داخل السترة، فعرفه السيّد بويريو مباشرة، لأنّه اسمه بالذات. أمّا إن لم يتذكّر السترة في الحال، فلأنّها سترة قديمة، وهو قد فصّل سترات كثيرة في حياته...

قال إنّه يفهم الأمر، لكن هل يمكنه أن يتذكّر شيئاً؟ كأن يبحث عن الفاتورة... أو في دفتر قديم لحساباته. فكّر السيّد بويريو في الأمر، ثمّ أخذ بطرف من أطراف السترة بين سبّابته وإبهامه وفرك القماش وهو شارد الفكر. إنّه متأكّد من أمر واحد، أنّه فصّل تلك السترة في الستّينيّات، يمكنه أن يقول هذا بكلّ تأكيد، لأنّ القماش هو من قطعة يذكرها بالفعل: اشتراها من التصفية بسعر كان حماقةً بالفعل، لأنّ البائع كان يريد التخلّص من جميع بقايا مخزنه. بدأ السيّد بويريو يبدي بعض الشكّ، فهو لا يعرف ما هو المطلوب منه. "هل أنت من الشرطة؟" سأله. ثمّ اتّخذ فجأة موقف الحذر، لأنّه خاف بكلّ تأكيد من أمر قد يسيء إليه.

حاول أن يطمئنه بشكل ما: نفى الأمر، وهو يريد الثوب بالفعل، عليه ألّا يخشى، بل إنّه مستعدّ لأن يدفع سلفة في الحال، ثمّ اخترع تفسيراً غريباً. تفسيراً من الواضح أنّه شديد التعقيد،

حتّى إنّ السيّد بويريو بدا أنّه على غير اقتناع رغم أنّه قال إنّه مستعدّ لأن يتعاون ما وسعه ذلك، خاصّة أنّه ما زال يحتفظ بأرشيف صغير لزبائنه القدامى، علماً بأنّ كثيراً منهم أصبحوا في عداد الأموات، ثمّ إنّه في الحقيقة أنهى كلّ أعماله منذ ثماني سنوات، فأقال المتدرّبين، وأصبح متقاعداً، لأنّه ليس هناك من سبب للاستمرار في عمل المشغل.

"فلنرَ إذاً... فلنرَ..." تمتم بطريقة آليّة وهو يتصفّح دفاتر الإيصالات، "هذه تعود إلى عام ١٩٥٩ لكنّ بعضاً منها يعود إلى طلبيّة من الستّين..." قرأ بعناية في الدفاتر وهو يمسكها على مقربة عشرة سنتمترات من أنفه، ثمّ خلع نظّارته فظهرت عيناه طفوليّتين. "أظنّ أنها هذه" قال بنوع من السرور، "سترة بقماش صوف تويد، إنّها هي بكلّ تأكيد." توقّف للحظة. "المحاسب[١] فالديني غوليلمو، تيرّينيكا، شارع ديلّا دوغانا ١٥ أحمر". رفع عينيه عن الدفتر ثمّ أعاد النظّارة إلى عينيه. وقال إنّه بعد تمحيص وتفكير يرى أنّه لا يشعر بإمكانيّة تفصيل الثوب، لأنّ نظره متعب بحيث لا يمكّنه حتّى من شكّ خيط في إبرة. ثمّ إنّ الأزياء السائدة في هذه الأيّام غريبة عليه.

---

١ يُستعمل لقب المحاسب في إيطاليا كلقب دكتور أو مهندس فيقال المحاسب فلان مثل المهندس فلان. (م)

١٢

استقبله المحاسب فالديني في مكتب أغبر، كانت هناك لوحة لمّاعة على بابه الزجاجيّ الذي يؤدّي إلى ممرّ قاتم، كتب على اللوحة: "تيرّينكا للاستيراد والتصدير" تظهر من النافذة رافعات الميناء، وعنبر من الصفيح وقاطرة بحريّة تعمل في المياه الملوّثة بالزيت. بدا وجه المحاسب فالديني كوجه شخص امتهن طيلة حياته كتابة الرسائل للبلدان البعيدة وهو يراقب الرافعات والحاويات عبر النافذة. فُرشت الطاولة تحت الزجاج الذي يعلوها بالبطاقات البريديّة المصوّرة، وكان خلف كتفيه تقويم ملوّن يشجّع السياحة في اليونان. يتمتّع الرجل بإطلالة هادئة سمحة وعينين واسعتين غير معبّرتين، وقد سرّح شعره الرماديّ على شكل فرشاة كما كان الأمر شائعاً في ذلك الحين.

اندهش بالفعل لرؤية سترته القديمة التي اقتناها قبل سنين كثيرة لا يذكر عددها، ربّما قبل عشرين سنة، ربّما.

"وهل ضاعت حقّاً؟."

كان المحاسب فالديني يلعب بقلم على الطاولة، تحرّكت القاطرة البحريّة ضمن إطار النافذة مخلّفةً بقعاً زرقاء على سطح الماء. من الصعب عليه أن يقول، الحقيقة أنّه لا يعرف، لا بل يظنّ العكس، لنقل إنّه غاب عنه، كما يبدو له. يصل من الميناء صوت صفّارة، ينظر المحاسب فالديني إلى الزائر ببعض الفضول، لا بدّ من أنّه يتساءل الآن ما هي هذه القصّة عن سترته القديمة، ما دخل ذلك السيّد، وإلى أين يريد أن يصل. من الصعب على سبينو أن يصبح مقنعاً، كما أنّه لا يريد ذلك. ينظر إليه المحاسب فالديني نظرة هادئة، من المؤكّد أنّ في دفتر الحسابات المفتوح أمامه أرقاماً تعني أو تشير إلى مدن أحلام مثل سمرقند، هناك يعيش الناس حياتهم بطريقة أخرى. يشعر سبينو بأنّ عليه أن يقول الحقيقة، أو أمراً مشابهاً للحقيقة. هاك الحقيقة إذاً، والأمور هي على هذا الشكل. فهل سيفهم المحاسب فالديني هذا؟ ربّما. لكنّه سيدرك الأمر كما يدرك أحلامه هو الرجل الخامل الذي لا يتحرّك من وراء مكتبه. لا يهمّ، أجل، لقد تذكّر، كانت سنة خمس وتسعين، أو ستّين، كان يترك السترة دائماً في الموضع الذي توجد فيه سترته اليوم، على ذلك المشجب خلف الباب، كان المكتب بهذا الشكل الذي هو عليه اليوم، تماماً. قام بحركة غامضة في الهواء، ليس في ذكرياته شيء غريب إلّا هو، المحاسب فالديني في صباه، الذي لم يذهب البتّة إلى سمرقند. هناك أيضاً شخص مثابر يتحمّل التعب، يعمل حمّالاً، كان كثيراً ما يدخل

إلى المكتب، يقوم بكلّ الأعمال لأنّه كان بحاجة إلى عمل، كان يعمل في السابق موظّف جمارك، هذا إن لم تخنه الذاكرة، لكنّه لا يعرف لماذا ترك تلك الوظيفة، حدثت مصيبة كبيرة في حياته، لا يعرف ما هي لأنّه كان شخصاً لطيفاً قليل الكلام، ربّما كان مريضاً، غير صالح ليعمل حمّالاً، اسمه فورتوناتو[1]، يبدو أنّ الأسماء تسخر أحياناً من حامليها، رغم أنّ الجميع كانوا ينادونه قرطبة، ولا يذكر كنيته. سمّوه قرطبة لأنّه كان مرّة في الأرجنتين أو في أحد بلدان أميركا اللاتينيّة، أجل، فقد ماتت زوجته في الأرجنتين فعاد إلى إيطاليا مع ابنه، فتى صغير، كان دائماً يتكلّم عن ابنه، هذا عندما كان يتكلّم، لم يكن له أقارب هنا فوضعه في المعهد، لم يكن معهداً بالمعنى الصحيح، كان فندقاً صغيراً تديره امرأة عانس تستضيف فيه بعض الأطفال، كان نوعاً من المدرسة الخاصّة، متواضعة بالطبع، لا يعرف مكانها بالضبط، ربّما قرب كنيسة سانتو ستيفانو، يُخيّل إليه أنّ اسم الولد كان كارليتو، لأنّ قرطبة كان دائماً يتحدّث عن كارليتو.

رنّ الهاتف في غرفة مجاورة فاضطرب المحاسب فالديني، عندما عاد بدأ ينظر بقلق نحو الباب، ثمّ نحو مصنّفاته: لقد انقضى الصباح بسرعة، هذا ما تقوله عيناه الآن وقد رأى سبينو فيهما خجلاً وحرجاً. حسناً، نقطة أخيرة وسيغادر، هل يمكن

١ تعني بالايطالية محظوظ. (م)

أن يلقي نظرة على هذه الصورة، وهل يمكن أن يكون هذا الرجل الجالس تحت رواق الباب قرطبة بالذات؟ هل تتعرّف إليه؟ والفتى؟ أمسك المحاسب فالديني الصورة برفق بين السبّابة والإبهام، ثمّ أبعدها عن وجهه بسبب خلل في نظره، لا، قال، إنّه ليس قرطبة، لكن يا للغرابة، إنّه يشبهه كثيراً، يمكن أن يكون أخاه، لكنّه لا يعرف إن كان لقرطبة أخ، أمّا بالنسبة للفتى، فهو لم يرَ كارليتو قطّ.

بدا المحاسب فالديني غارقاً في أفكاره وهو يلعب بالقلم باضطراب وعصبيّة. الواقع أنّه لا يريد أن يفهمه أحد بطريقة غير صحيحة: إيه، الأشياء، أشياؤنا دائماً متقلقلة، أمكنتها متغيّرة، تخون حتّى الذاكرة، كيف لم يتذكر ذلك؟ على كلّ فهو الآن يتذكّر بكلّ وضوح، لقد أهدى تلك السترة إلى قرطبة، قدّمها له يوماً هديّة، وكان قرطبة لا يرتدي إلّا ملابس رثّة، رغم أنّه كان شخصاً لائقاً محترماً.

١٣

"يقولون عنّي مجنونة، لأنّني أعيش مع كلّ هذه القطط، لكن ماذا يهمّني من أقوالهم. على كلّ أرجو أن لا تكون أتيتَ بشأن البوّابة؟ كنتُ مضطرّة لأن أدهن بوّابة المدخل بعد أن صدمتها سيّارة شحن البلديّة وهي تناور قربها، حدث هذا قبل بعضٍ الوقت، يجب أن تعرف هذا أكثر منّي، أليس كذلك؟ على كلٍّ أنا أذكر كارليتو تماماً، لكنّي لست متأكّدة من أنّه نفس الطفل الموجود في صورتك هذه، ألا ترى أنّه أشقر جدّاً لكي يكون هو، لكن لا يمكن الجزم في كلّ الأحوال. كارليتو الذي كان عندي هنا كان طفلاً مرحاً، كان يحبّ كائنات الأرض الصغيرة: مثل الدبابير والنمل واليراعات، والديدان الخضراء والصفراء، تلك ذات العيون الجاحظة وربّما ببعض الوبر..."

انتفض القطّ الذي كان متربّعاً في حضنها وجرى هارباً بقفزة واحدة. نهضت هي أيضاً، ما زالت عندها صور أخرى، لأنّها لا ترمي أيّ شيء أبداً ويعجبها أن تحتفظ بالأشياءالقديمة. ها

هي تسحب من أحد الدروج علباً صغيرة، أشرطة، تاج سبّحة، ألبوماً بغلاف من صدف. تدعوه لأن يتصفّح الألبوم برفقتها، فمن الأفضل مشاهدته معاً. توجد صور مصفرّة لرجال خشنين، مستندين إلى أسوارٍ من كرتون، واسم المصوّر مطبوع تحت أقدام الأشخاص، ثمّ شخص من سلاح الرماة يبدو تعيساً بالإضافة إلى إهداءٍ كُتب بحروف مائلة، ثمّ باخرة فيتوريو فينيتو[1] في عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر، وعجوز جالسة على أريكة من الخوص، عربات تسير عبر مدينة فلورنسة، كنيسة، مجموعة عائليّة مصوّرة من مسافة بعيدة، طفلة تلبس قفّازات بيضاء ويداها مضمومتان، صورة تذكاريّة لحفل تناول أوّل قربان. هناك أيضاً صفحات فارغة، ثمّ كلب بعينين حزينتين، بيت مع شجيرة لحلحة ونوافذ كتب عليها بخطّ نسائيّ عبارة "ذكرى الصيف." في الصفحة الأخيرة مجموعة أطفال تقف في الفناء بشكل هرميّ: القرفصاء في الصفّ الأمامي، ثمّ وقوفاً في الصفّ التالي وبعدهم طوال القامة رغم أنّهم واقفون على مقعد. بدأ بعدّ الأشخاص، إنّهم أربعة وعشرون، على يمينهم، واقفة، بيدين متصالبتين، الآنسة إلفيرا كما كانت في ذلك الحين، لكن لا يوجد فرق كبير. كانوا بعيدين عن العدسة بحيث لا يمكن القيام بمحاولة معقولة لتفسير ملامح وجوههم: الوحيد الذي يمكن أن يظهر شيئاً من الشبه مع

١ اعتبرت Vittorio Veneto ثاني أهم باخرة في البحرية العسكرية الإيطالية. (م)

الصورة التي يبحث عنها هو طفل أشقر من الصفّ الأوّل، لأنّ له نفس قامة الجسم، وهو يسند ذقنه إلى يده وكوعه إلى ركبته، لكنّ تحديد الشخص مستحيل.

وهل تتذكر الآنسة إيلفيرا والد ذلك الطفل؟ لا، إنّها لا تتذكر الأب، لا تعرف إلّا أنّه كان ميّتاً، والأمّ أيضاً، لم يكن له إلّا عمّ، لكن هل من المؤكّد أنّ اسمه كان كارليتو؟ يبدو لها أنّ اسمه كان كارلينو، على كلّ نفس الشيء، كان طفلاً شديد المرح ويحبّ كائنات الأرض، الدبابير والنمل واليراعات، والديدان الخضراء والصفراء...

وهكذا فها هو يهيم من جديد بحثاً عن لا شيء، يبدو أنّ جدران هذه الدروب الضيّقة تعده بجائزة لا يتمكّن من الحصول عليها، كأنّها دروب لعبة الإوزّة[1] مرسومة على لوحة فيها مربّعات فارغة وخدع يواصل الدوران فيها على أمل أن يتوقّف الدولاب وتقع الكرة على رقم يعطي المعنى لكلّ شيء. لكن ها هو البحر هناك، وهو ينظر إليه. تمرّ فوقه أشباح سفن، بعض النوارس، بعض الغيوم.

---

١ أو ثعابين وسلالم. بالإيطاليّة il gioco dell›oca وبالإنكليزيّة Game of the Goose or Goose game وهي لعبة طاولة للأطفال يعتمد الفوز فيها على الحظ فقط. تجري اللعبة داخل ممرّات حلزونيّة فيها عدد كبير من المربّعات لكل منها رقم أو رمز ينتقل اللاعب إليها بحسب الرقم الذي يعطيه النرد. والفائز هو الذي يصل أوّلاً إلى المربّع المركزي في الدوّامة الحلزونيّة.

١٤

هناك أيّام يبدو فيها أنّ الجمال يتجلّى في هذه المدينة عندما يغار منها. هذا ما يحدث مثلاً خلال الأيّام الصافية، عندما يسبق شيء من النسيم هبوبَ الرياح الجنوبيّة الغربيّة التي تجتاح الشوارع وهي تهدر كشراع مرفوع. تكتسب البيوت والأبراج حينها صفاءً واقعيّاً، وتظهر حدودها واضحة المعالم كما في صورة متباينة الألوان يتصادم فيها الضوء والظلّ تصادماً قويّاً لا انسجام فيه، ويرسمان رقعاً شطرنجيّة بيضاء وسوداء، بقعاً تهيمن على الدروب والساحات بظلالها وسطوعها.

ذات مرّة كان يختار في أوقات فراغه، أيّاماً كهذه الأيّام لكي يتسكّع في المرفأ القديم، فكّر في ذلك الزمان وهو في طريق عودته إلى المدينة وكان يسير على طول الرصيف فوق السكّة المهجورة الخاصّة بالعربات. كان بوسعه أن يركب حافلة من الحافلات التي تذهب إلى المدينة عبر أنفاق الطرق الالتفافيّة، لكنّه فضّل عبور المرفأ مشياً على مسار المقاعد المصفوفة

بشكل انعطافات حلزونيّة، كانت لديه رغبة في التسكّع بين القطع الحديديّة المرميّة في ذلك المكان الوعر لأنّها تذكّره بطفولته، حينها كانوا يقفون على سطح الطوّافات ليقفزوا فوق العجلات المطّاطيّة الموضوعة على جوانبها، كانت تلك فصول صيفٍ بائسة لكنّ ذكراها بقيت منحوتة في رأسه كجرح عميق.

شاهد في ذلك الحوض المهجور، حيث كانوا يصلّحون الزوارق البخاريّة، هيكل باخرة سويديّة مركونة على جنبها: اسمها أولّا، والغريب أنّ الحروف الصفراء التي كُتب بها الاسم نجت من الحريق الذي التهم السفينة مخلّفاً بقعاً بنيّة ضخمة فوق دهانها. فكّر أنّ ذلك الوحش الغليظ المشرف على الفناء كان يحتلّ دائماً ذلك الركن من المرفأ وكان موجوداً على الدوام في ذلك المكان. بعد أن سار لمسافة قصيرة وجد غرفة هاتف متهالكة، ففكّر في أن يكلّم كورّادو ويضعه في مجرى الأمور، فمن العدل أن يخبره، خاصّة أن ذلك اللقاء لم يحدث إلّا بفضله.

قال "كورّادو، هذا أنا، لقد أفلحتُ وتكلّمتُ معها."

"لكن أين أنت، لماذا اختفيت بهذه الطريقة؟"

"لم أختفِ على الإطلاق، إنّني في المرفأ، لا تقلق."

"كانت سارة تبحث عنك، تركت لك رسالة هنا في الجريدة، قالت إنّهم مدّدوا الرحلة ثلاثة أيّام أخرى، سيذهبون إلى سويسرا."

حطّ النورس الذي كان يحلّق حوله منذ فترة على ذراع مضخّة

الماء قرب غرفة الهاتف، كان ينقر ريشه، وهو ينظر إليه بكلّ طمأنينة وهدوء.

"يوجد بالقرب منّي طائر نورس، قرب غرفة الهاتف بالذات، يبدو أنّه يعرفني."

"ماذا تقول؟... اسمع، أين وجدته، ماذا قال لك؟"

"لا أستطيع أن أشرح لك الآن، يوجد هنا طائر نورس بآذانٍ مشرّعة، لا بدّ من أنّه جاسوس."

"لا تكن أحمق، أين أنت، أين وجدته؟"

"إنّني في المرفأ كما أخبرتك. اجتمعنا في النادي البحريّ، فيه زوراق للأجرة وقد قمنا بنزهة في الزورق."

بدأ صوت كورّادو يتّخذ نبرة وديّة، ولا بدّ من أنّ شخصاً ما دخل على الأرجح إلى مكتبه. "لا تثق" قال له، "لا تفعل أيّ شيء على أساس الثقة."

"ليست المسألة مسألة ثقة أو عدم ثقة، لقد اقترح عليّ اقتراحاً وأنا سأجرّب، لم يكن هو على علم بأيّ شيء عن القصّة، لكنّ هناك شخصاً آخر قد يعرفها، وقد أخبرني من هو."

"من هو؟"

"قلت لك إنّي لا أستطيع أن أتكلّم، لا أريد أن أتكلّم بالهاتف."

"لن يسمعك أحد هنا، فهاتفي غير مراقب. قل لي من هو."

"أستميحك العذر، لكن أتظنّ أنّه أخبرني بالاسم والكنية؟ إنة أخبث من أن يفعل ذلك. اكتفى بتقديم إشارات معيّنة عليّ أن

أفهمها من تلقاء نفسي."

"أفهِمني إذاً أنا أيضاً."

"لن تفهم."

"وكيف فهمت أنت إذاً؟"

"لأنّه شخص عرفته بالصدفة قبل سنين، إنّه موسيقيّ."

"أين يعزف."

"كورّادو، أرجوك، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً."

"على كلّ حال أرى أنّ القضيّة لا تعجبني، وأنت ساذج جدّاً، هل فهمت؟ إنّه مستنقع، وأنت مهدّد بالغوص فيه حيثما تضع قدمك."

"العفو يا كورّادو، أحيّيك الآن، لقد بدأ الوقت يتأخّر. ثمّ إنّ النورس قد تضايق، يبدو أنّه يريد أن يستعمل الهاتف هو أيضاً، إنّه يشير إليّ بمنقاره إشارات غاضبة."

"تعالَ حالاً، أنتظرك في الجريدة، لن أذهب إلى البيت خصّيصاً لأراك."

"ربّما غداً، اتّفقنا؟ أنا مرهق اليوم، ثمّ إنّ هناك عملاً ينتظرني هذا المساء."

"عدني بأنّك لن تثق."

"اتّفقنا، سنلتقي غداً."

"انتظر لحظة، لقد علمت بأمر قد يهمّك. لقد أمَرَ القاضي بالدفن، لقد أُغلقت القضيّة."

١٥

قبل عشرين سنة كان "التروبيكاله" نادياً ليليّاً ذا سمعة مشكوك في أمرها يرتاده البحّارة الأميركيّون، لكنّ اسمه الآن تحوّل إلى "لويزيانا" وأصبح مجرّد حانة "بيانو-بار" فيه أرائك ومصابيح إضاءة موضوعة على الطاولات. كُتب في قائمة المشروبات الموضوعة قرب المدخل داخل إطار من المخمل الأخضر:

"بيبّهْ هاربو على آلة البيانو"

بيبّهْ هاربو هو جوزيبّهْ أنطونيو آربيتّي، من مواليد سيستري ليفانتهْ[١] ١٩٢٩، فُصل من سجلّ الأطبّاء عام ١٩٦٢ بسبب تراخيه الشديد في تقديم وصفات أدوية مخدّرة، كان يعزف أيّامَ الجامعة على البيانو خلال بعض الحفلات، كان يتمتّع بموهبة التقليد ويقلّد ايرول غارنر[٢] بإتقان. بعد تلك الفضيحة بدأ بالعزف

١ Sestri Levante بلدية وبلدة جنوبيّ مدينة جنوى في منطقة ليغوريا الإيطاليّة، وتُعدّ من أفضل المناطق السياحيّة الواقعة على الريفييرا الإيطاليّة. (م)

٢ Erroll Garner (١٩٢٣–١٩٧٧) عازف جاز أميركي. (م)

في نادي التروبيكالهْ، وكان يعزف ألحان مامبي وبعض الأغاني الخفيفة خلال أمسيات مفعمة بالدخان وكان سعر المشروب لا يتعدّى خمسين ليرة[١] كان مخرج النجاة في الحانة يؤدّي من وراء الخلوات إلى بيت درج فيه باب يعلوه إعلان بإضاءة نيون: "بنسيون، غرف، زيمّر". اختفى بعدها لمدّة ستّ أو سبع سنين، وعندما ظهر ثانية في أميركا قالوا إنّه كان يضع نظّارة صغيرة مستديرة وله شاربٌ فلفل وملح[٢] وأصبح اسمه بيبّهْ هاربو، عازف جاز على البيانو. مع عودته تحوّل اسم التروبيكالهْ إلى لويزيانا. فزعم البعض أنّه اشترى المحلّ بعد أن جمع ثروة من وراء العزف في أوركسترات أميركيّة. ما كان لأحدٍ أن يظنّ طبعاً أنّ من المستحيل عليه أن يجمع ثروة، لأنّه قادر على ذلك، أمّا أن يكون جمعها بالكبس على أزرار البيانو فهذا ما شكّ فيه كثير من الناس.

جلس بينو على طرف وطلب مشروب جين وتونيك. كان هاربو يعزف مقطوعة "في بلدة إسبانيّة صغيرة"[٣] وبدا أنّه لم ينتبه إليه، لكنّ المشروب وصل إلى طاولته دون أن يكون مصحوباً بقسيمة السعر. بقي وحده فترة طويلة وهو يرتشف مشروبه ببطء ويستمع إلى ألحان قديمة. بعد بدء الاستراحة في حوالى الحادية

---

١ الليرة اسم العملة الإيطالية السائدة قبل أن تحوّل إلى اليورو. (م)

٢ كناية عن أسود وأبيض (م)

٣ *In a little spanish town* (م)

عشرة نهض هاربو عن البيانو وبدأ شريط مسجّل يبثّ ألحاناً راقصة. تولّد انطباع لدى سبينو وهو يرى هاربو يقترب من الطاولات بأنّ تعابير استياء وحزم معاً تعلو وجهه، كأنّها تعني: اسألني عن أيّ شيء لكن ليس عن ذلك الأمر، لأنّي لا أستطيع أن أبوحِ به. "إنّه يعرف"، تمتم صوتٌ في داخله، "إنّ هاربو يعرف". فكر سبينو لهنيهة بأن يضع على الطاولة صورة الفتى عندما كان طفلاً دون أن يقول شيئاً، لكنّه ابتسم بخبثٍ من يعرف ماذا يريد وقال بكلّ بساطة إنّ الوقت حان على الأرجح لكي يبادل هاربو المعروف بمعروفٍ مثله، واستسْمَحَه لأنّه يتكلّم بصراحة فهو يطلب معروفاً كي يساعده على إيجاد شخص معيّن كما فعل هو ذات مرّة معه. ارتسمت على وجه هاربو تعابير دهشة بدت صادقة، بينما انتظر بصمت، عندها سحب سبينو صورة المجموعة. "وهذا"، قال وهو يشير إلى الطفل "هل هو قريبك؟"

هزّ رأسه بالنفي.

"من هو إذن؟"

"لا أعرف، وهذا ما أريد أن أعرفه، ربّما كان اسمه كارليتو."

كان هاربو ينظر إليه بريبة، كما لو أنّه يتوقع خدعة أو يخشى أن يكون وقع في فخ. هل هو مجنون؟ أولئك الناس كانوا يرتدون ملابس من الخمسينيّات، هذه صورة قديمة، ذلك الطفل أصبح اليوم رجلاً، اللعنة.

"لقد فهمت الأمر على أحسن وجه"، قال له سبينو، "لقد

أصبحت لحيته الآن سوداء، كما أصبح لون شعره غامقاً أيضاً، ولم يعد أشقر كما كان في الصورة، لكنّ وجهه ما زال يحتفظ بإطلالته الطفوليّة، لقد بقي عندي لعدّة أيّام تحت الجليد، أمّا الأشخاص الذين يعرفونه فقد التزموا الصمت، لا شيء أبداً، ولا حتّى مكالمة هاتفيّة من مجهول، كما لو أنّه لم يكن موجوداً على الإطلاق، لقد محوا كلّ ماضيه."

كان هاربو ينظر حوله بنوع من الانزعاج. كان هناك زوجان جالسان على طاولة قريبة ينظران إليهما بنوع من الاهتمام. "لا تتكلّم بصوت مرتفع" قال له "ليس من الضروريّ أن نزعج الزبائن."

"اسمع يا هاربو"، قال له، "إن لم يملك الإنسان الشجاعة ويتقدّم فلن يفهم أبداً، بل سيكون مجبراً طيلة حياته على أن يلعب دون أن يعرف أيّ سبب."

نادى هاربو على النادل وطلب مشروباً. "لكن من هو بالنسبة لك؟"، سأله بصوت خافت، "إنّه مجهول، ليس له أيّ وزن في حياتك." كان يتكلّم همساً، كان مضطرباً وكانت يداه متوتّرتين.

"وأنت؟" قال له سبينو، "من أنت بالنسبة لنفسك؟ هل تعلم أنّك إذا قرّرت ذات يوم أن تعرف هذا فإنّ عليك أن تبحث عن نفسك هنا وهناك، وأن تعيد بناء نفسك، وأن تفتّش في الأدراج القديمة، وأن تستعيد شهادات ناس آخرين، وتبحث عن بصمات ضائعة في كلّ مكان؟ كلّ شيء مظلم قاتم، ولا بدّ من تلمّس الطريق."

خفض هاربو صوته ثانية وقال له أن يجرّب عنواناً لم يكن متأكداً منه. وقد كُتب على جبينه هذا يعني أنّ المعروف قد أُسدي سدادَ دينٍ إلى الأبد.

١٦

"دا إيغلهْ". اسمُ محلٍّ قديم لصنع الفطائر، هذا ما قيل له. جدران المحلّ مبطّنة ببلاط أبيض وفيه منضدة من الزنك تقف وراءها السيّدة إيغلهْ، وهي تخبز في فرن حطبٍ صغير قطعَ الحلوى وأنواعاً من الفطائر. جلس سبينو إلى إحدى طاولات الرخام فجاءت خادمة هزيلة القوام ترتدي مئزراً رماديّ اللون كثياب السجناء وبدأت بتنظيف سطح الطاولة بخرقة أزالت بها فُتات الزبون السابق. طلب معجّنات بالحمّص ثمّ رفع "الجريدة الرسميّة" كما طلبت منه التعليمات التي أخذها. ثمّ بدأ بمراقبة الزبائن ووضْع بعض الفرضيّات. كانت هناك على طاولةٍ قربه شقراوان ناضجتان تثرثران بصوت منخفض وتنفجران من حين لآخر بضحكات رنّانة. يبدو أنّهما ثريّتان، ترتديان ملابس فخمة باهظة الثمن. قد تكونان مومستين أقلعتا عن العمل وبدأتا باستثمار الأرباح في محلّ ما أو في أعمال ذات علاقة بمهنتهما السابقة بعد إعطائها واجهة جديدة حسنة المظهر. في إحدى

الزوايا شابّ معبّأ في سترته ومستغرق في قراءة مجلّة على غلافها صورة كاهن بوذيّ بدين يرتدي ثياباً برتقاليّة ويشير بإصبعه إلى طبق معجّنات أمامه. هناك أيضاً عجوز يبدو رشيقاً حيويّ المظهر رغم شعره المصبوغ بالأسود وبعض البريق الأحمر على صدغيه، لأنّه يستعمل بلا شكّ صبغات رخيصة. ربطة عنقه مبهرجة بشكل صارخ وينتعل حذاءً مثقّباً بلون أبيض وبنيّ. هل هو مهرّب، أم قوّاد، أم أرمل تحت تأثير مغامرة هستيريّة؟ كلّ هذا ممكن. هناك أخيراً فتى طويل نحيف مستند إلى المنصّة، يثرثر مع السيّدة إيغِلهْ، وعندما يبتسم يتكشّف فكّ أسنانه العلويّ عن نافذة كبيرة. طرف وجهه كالحصان وشعره لمّاع بطبيعته، يرتدي سترة تكشف عن معصميه الناتئين وسروال عمل. يبدو أنّ السيّدة إيغِلهْ تعاند ولا توافق على ما يطلبه منها الفتى الطويل. لكنّها لا تلبث أن تستسلم وتضع أسطوانة في آلة الفونوغراف المتداعية المركونة على طرف المنصّة والتي يبدو أنّ وظيفتها تزيينيّة فقط. كانت الأسطوانة من نوع الـ٧٨ دورة، وهكذا سرعان ما سُمع نعيبُ هبّاتٍ موسيقيّة يشبه صوت الأوركسترا تبِعهُ صوتٌ مرتفعٌ، أجشٌّ بسبب الخدوش المنتشرة على مجرى الأسطوانة. ثمّ ها هو أمرٌ مدهش: إنّه "تانغو الطيور المغرّدة"[١] من غناء رابلياتي[٢].

١ Il Tango delle Capinere أغنية إيطاليّة ١٩٢٨ لحّنت على وقع التانغو وترمز كلماتها إلى مواضيع اجتماعيّة قد يكون فيها نوع من تجميل وجه الدعارة. (م)

٢ Alberto Rabagliati (١٩٠٦–١٩٧٤) مغنّ إيطاليّ. (م)

يشير الفتى الطويل بنوع من التفاهم إلى الخادمة فتخضع لطلبه بلطف لكن بشيء من التأفّف وينطلقان في رقصة تانغو بخطوات طويلة تثير في الحال انتباه الزبائن. تسند الفتاة خدّها إلى صدر فارسها بمقدار ما يسمح بذلك طولُها، لكنّها لم تقوَ على متابعة خطواته الجريئة التي بدأت تجرجرها بعنف في أنحاء المكان. ختَما الرقصة بعدها بحركة "كاسكيه"[١] طريّة صفّق لها الجميع. صفّق سبينو أيضاً ثمّ طوى الجريدة وأبعد الطبق وتظاهر بأنّه غارق في مطالعة "الجريدة الرسميّة"

نهض الشابّ الذي يحمل صورة الكاهن البوذيّ بحركة حالمة وذهب ليدفع الحساب. خرج دون أن يتكرّم بإلقاء نظرة على الحضور، كما لو أنّ أفكاراً كثيرة تدور في رأسه. أصلحت الشقراوان زينتهما بينما كانت لفافتا التبغ تحترقان في صحن الرماد أمامهما، وعليهما آثار أحمر الشفاه. خرجتا وهما تتضاحكان دون أن تظهر أيّ منهما انتباهاً خاصّا بسبينو أو بالجريدة التي يقرأها. عندما رفع عينيه عن الجريدة تقاطعت نظرته مع نظرة العجوز المتصابي.

كانت نظرة طويلة وكثيفة، فشعر سبينو بخمار خفيف من العرق ينسدل على كفّيه. طوى الصحيفة ووضع فوقها علبة السجائر، بانتظار الحركة الأولى. ربّما كان عليه أن يفعل شيئاً

---

١ Casquè حركة في رقصة التانغو يمسك فيها الراقص بخصر شريكته فتترامى هي إلى الخلف. (م)

ما، لكنّه لا يعرف ماذا. هذا بينما كانت الفتاة قد أنهت إزالة الأطباق وبدأت بنثر النشارة لترطيب الأرض وهي تنظّف البلاط بفرشاة أكبر منها. السيّدة إيغِلهْ تراجع حساباتها وراء المنصّة، حلّ صمت مطبق على المكان وساد جوّ ثقيل قوامه الأنفاس ودخان السجائر والحطب المحروق. ما لبث العجوز المتصابي أن ابتسم: ابتسامة آليّة تقليديّة صاحبتها إشارة رأس خفيفة وحركة معبّرة. فهم سبينو المغالطة التي سبّبها، فاحمرّت وجنتاه حالاً من شدّة الحرج ثمّ شعر بغضب أصمّ يصعد في عروقه وتضايق من غبائه ومن المكان الذي هو فيه. لذلك أشار إلى الفتاة وناداها ليطلب الحساب. بدت هذه منهكة وهي تقترب وتجفّف يديها بمئزرها. أجرت الحساب على غطاء الطاولة الورقيّ، يداها منتفختان ومحمرّتان، غطّتهما النشارة فظهرتا كقطعتي لحم مكسوّتين بالطحين. ثمّ نظرت إليه بصلف وهمست بصوت خالٍ من أيّ إيقاع: "لقد بدأت تفقد شعرك، القراءة بعد الطعام تؤدّي إلى فقدان الشعر." صُدم سبينو ونظر إليها كما لو أنّه لم يصدّق الذي سمعه. وفكّر، لا يمكن أن تكون هي، لا، لا يمكن، قد يكون عليه أن يكبح جماح نفسه كي لا يهاجم ذلك الوحش الذي يواصل التحديق فيه بصلف واستعلاء. أمّا هي فكانت تتكلّم بلهجة مهنيّة متعالية عن عطّار يبيع منتجات لمعالجة الشعر في شارع فيكو سباتسافينتو.

١٧

فيكو سباتسافينتو[١] اسمٌ على مسمّى ينطبق على هذا الطريق المسدود المسحوق بين جدران مليئة بالشقوق. تهدر الريح ويجتاز شعاع الشمس الممرّات الضيّقة التي ترفرف فيها عالياً قطع الغسيل المنشور تحت سماء لا يُرى منها إلّا مقطع صغير. يسطع ذلك الشعاع الضئيل فوق كومة من النفايات المتراكمة: يبرز بينها إكليل ورد جافّ، صحف، وجوارب نايلون.

الدكّان عبارة عن قبو له بابٌ بمصراع واحد، يبدو كأنّه مدخل لمحلّ فحم، والواقع أنّ على الأرض أيضاً أكياس فحم، رغم أنّ الكتابة على القوس تعلن عن محلّ "بهارات – طلاءات" على المنصّة عمود من الصحف تُستعمل أوراقها لتغليف البضائع، وهناك عجوز متناعس يجلس على أريكة قشّ صغيرة قرب الفحم، نهض، وعندما ابتدره سبينو بالتحيّة علك عبارة "صباح الخير" واستند إلى المنصّة بشيء من الكسل كأنّه غائب عن المكان.

١ اسم علم قد يعني حارة مهبّ الريح. (م)

"سمعت أنّ مستحضرات للشعر تباع هنا" قال سبينو.

أجاب العجوز بكفاءة بعد أن أطلّ من فوق المنصّة وبرز قليلاً وهو ينظر إلى شعره، ثمّ عدّد منتجات بأسماء غريبة: زوفلكس، كاترامينا، وبعدها أسماء نباتات وجذور: مثل الميرميّة، القرّاص، الراوند، الرزّ الأحمر. "أظنّ أنّ الرزّ الأحمر هو المناسب، هذا ما أظنّه للوهلة الأولى، إذ يجب إجراء تحليل للشعر."

أجابه بأنّ الرزّ الأحمر قد يكون مناسباً، لا يعرف، ولا يدري ما هي فضائل الرزّ الأحمر.

نظر إليه العجوز نظرة شكّ، كان يضع نظّارة معدنيّة ولم يحلق لحيته منذ يومين. لم يقل شيئاً. حاول سبينو أن لا يقع فريسة أيّ قلق، قال بهدوء إنّه لم يتحقّق من طبيعة شعره، إنّه بكلّ بساطة شعر هشّ، وفي كلّ الأحوال فإنّه لا يريد منتجات تجاريّة بل يريد مستحضرات خاصّة، وشدّد على كلمة خاصّة، أي مستحضرات لا يمكن إلّا له وحده أن يعرف تركيبتها، وهو قد جاء بناءً على نصيحة أشخاص موثوقين، ومن الغريب أنّهم لم يخبروه.

كشف العجوز ستارة وطلب منه أن ينتظر ثمّ اختفى. لمح سبينو لبرهة صندوقاً صغيراً وفرن غاز ومصباحاً مناراً، لكنّه لم ير أحداً. بدأ العجوز يتكلّم على مسافة أمتار قليلة من سبينو، همساً. أجابه صوت امرأة، ربّما كانت عجوزاً. ثمّ صمت الاثنان، ليعودا بعدها للحديث بصوت منخفض جدّاً، بحيث

كان من المستحيل فهم الذي يقولانه، ثمّ سمع صريراً يشبه صرير فتح درج، ثمّ صمتٌ من جديد.

مرّت الدقائق بطيئة، لم يتمكن من سماع شيء من مكانه ولا حتّى أيّ ضجيج، كما لو أنّ الاثنين خرجا من باب آخر وتركاه ينتظر كالأغبياء. سعل سبينو بإصرار، وقرقع بالكرسيّ، عندها أطلّ العجوز من وراء الستارة ونظر إليه نظرة تأنيب. "أرجوك أن تصبر"، قال له، "دقيقة أخرى."

استدار حول المنصّة وذهب ليغلق بالمزلاج مصراع الباب الذي يفضي إلى الشارع. كان يتحرّك بنوع من الحذر، نظر إلى الزبون، أشعل سيجاراً صغيراً ثمّ عاد إلى خلف الدكّان. عادت الأصوات للهمس، متلاحقة أكثر من السابق. كان الدكّان شبه مظلم، خاصّة بعد أن خبا ضوء النهار الذي كان يدخل عبر حديد النافذة. بدت أكياس الفحم على عرض الجدران كأنّها أجسادٌ بشريّة مسجّاةٌ نائمة. لم يتمكّن سبينو من كبح أفكاره التي صوّرت له أنّ ذلك الفتى المجهول جاء بدوره إلى هذا الدكّان وانتظر مثلما هو ينتظر الآن في شبه العتمة، وربّما كان العجوز يعرفه أتمّ المعرفة، يعرف من هو، يعرف تساؤلاته، ويعرف أفكاره.

في النهاية عاد الرجل الصغير وعلى وجهه ابتسامة، كان يحمل في يده زجاجة صغيرة بنيّة اللون كالتي يبيع بها الصيادلة صبغة اليود، وكان قد غلّفها بعناية داخل قطعة من الجريدة، مدّ

يده بها بصمتٍ من وراء المنصّة. نظر سبينو بدوره إليه، تردّد وربّما ابتسم. "احترس من الأخطاء" قال له "إنّ الأمر هامّ"

فتح العجوز مزلاج الباب، ثمّ عاد ليجلس على أريكته وليراجع حساباته من حيث توقّف. أصرّ على التظاهر بأنه لم يسمعه. فقال له: "اذهب الآن، التعليمات مكتوبة على اللصاقة."

أدخل سبينو الزجاجة في جيبه وذهب، حيّاه، فأجاب العجوز بالقول إنّه أضاف الميرميّة إلى المستحضر لإضفاء بعض الرائحة. لم يكن هناك أحد في فيكوسباتسافينتو، بدا له أنّ الزمن لم يتحرّك، وأنّ كلّ شيء قد حدث بسرعة شديدة، كحدثٍ جرى خلال زمن بعيد وعاد كالبرق إلى الذاكرة.

١٨

سأل الحارس إن كان يعرف نصباً يعلوه تمثالُ ملاكٍ مع بومة، نظر هذا إلى الزائر متظاهراً أنّه يفكّر في سؤاله بينما بدا واضحاً أنّه مشتّت الذهن. ولكي لا يظهر بمظهر الجاهل فإنّه أجاب في كلّ الأحوال يجب أن يكون التمثال في الجناح الغربيّ، ثمّ إنّه اخترع لنفسه شيئاً من الكفاءة غير المطلوبة حين أضاف: "لا بدّ أنّه موجود بين قبور الصفّ الأوّل، لأنّ البومة كانت في العصر الرومانتيكيّ حيواناً شائعاً على الموضة." وبينما كان سبينو يبتعد بالاتّجاه الذي أشارت إليه ذراع الحارس ذكّره هذا بأنّ أبواب المقبرة تُغلق في تمام الخامسة، وأنّ عليه أن ينتبه كي لا يعلق داخلها. "هناك دائماً أشخاص يعلقون في الداخل"، أضاف ليخفّف من صرامة تحذيره.

أشار هو بإشارة تفهّم وسار على طول الطريق المعبّدة التي تجتاز الساحة الرئيسيّة. كانت المقبرة شبه مقفرة، ربّما بسبب الوقت والنهار العاصف. كان هناك بضع عجائز بلباس أسود

وسط الساحة، مشغولات بترتيب القبور. فكّر أنّ ممّا يثير الفضول أن يقضي المرء عمره في مدينة ما دون أن يعرف زاوية من أشهر زواياها. فهو لم يدخل قطّ إلى صرح هذه المقبرة الموصوف في كلّ دليل سياحيّ. لكنّه رأى أيضاً أنّ التعرّف إلى مقبرة ما يقتضي على الأرجح وجود ميّت من الأقرباء مدفون فيها. أمّا أمواته فهم ليسوا مدفونين في هذه المقبرة، بل ولا في أيّ مقبرة أخرى، وهو يزورها الآن لأنّ له ميّتاً لا يقربه، وهو ليس مدفوناً فيها على أيّ حال، ولا تربطه به أيّ ذكريات جرت في حياة سابقة.

بدأ يتسكّع بين القبور، ويقرأ شواهد القبور الجديدة وهو شارد الذهن، ثمّ دفعه الفضول نحو درج معبد قبيح من العصر الكلاسيكيّ الجديد وفيه توابيت بعض كبار شخصيّات عصر النهضة وقد كُتبت على بوّابته باللاتينيّة عبارة تؤكّد صلة غير منطقيّة بين الله والوطن. عبر قسماً من المنطقة الشرقيّة حيث شيّدت قبور من بناء غريب الشكل مليء بالأبراج والقبب قرب عمارات بنيت على الطراز القوطيّ الجديد، ولم يتمكّن إلّا أن يلاحظ أنّ تلك المنطقة تجمع بين أصحاب الألقاب في المدينة: من أرستقراطيّين وأعضاء مجالس شيوخ المملكة، أميرالات، أساقفة، ثمّ عائلات عوّض نبلُها الاجتماعيّ عن نبل محتدها، مثل تجّار السلاح وغيرهم من التجّار والصناعيّين الأوائل. يساعدنا تصميم مدخل المعبد على تفسير الأسباب

الكامنة وراء الهندسة الأصليّة للمقبرة، رغم أنّ هذه خضعت لتعديلات مختلفة خلال أعمال الترميم المتعاقبة. ومع هذا فقد بقيت فكرتها الأساسيّة تعبّر عنها بشكل ما. ففي الجنوب كما في الشرق الأحياء الأرستقراطيّة، وفي الشمال والغرب صروح لقبور البرجوازيّة التجاريّة، أمّا في الساحات المركزيّة فالمساكن الشعبيّة مسوّاة بالأرض. هناك أيضاً مناطق أخرى لطبقات اجتماعيّة مختلفة مثل الغرباء. شاهد قرب درج المعبد رواقاً كاملاً لأهل الخير ورجالات العلم ومفكّرين من مختلف الدرجات. وقد أثار فضوله كيف أنّ إيطاليا كانت تصنّف موتاها خلال القرن التاسع عشر بطريقة أمينة وتضعهم ضمن مجموعات تبيّن الفروق بين مختلف طبقات المجتمع. أشعل سيجارة وجلس في قمّة الدرج وهو مستغرق في أفكاره. خطر على باله فيلم "البارجة بوتمكين"[١]، وهذا ما يحدث معه كلّما شاهد درَجاً كبيراً أبيض. وتذكّر أيضاً فيلماً تدور أحداثه خلال الحقبة الفاشستيّة كان معجباً به بسبب عظمة ديكوراته. بل تهيّأ له لبرهة أنّه يعيش هو بالذات في فيلم يمثّل فيه دور بطلٍ مستغرق في أفكاره، بينما المخرج وراء آلةٍ تصوير خفيّة موضوعة في

---

١ Battleship Potemkin أو La corazzata Potemkin اسم فيلم سوفياتيّ من إخراج سيرجه أيزنشتاين وهو من أعظم الأفلام في تاريخ السينما بسبب قيمته الجماليّة والتقنيّة العالية رغم أنّه من أفلام الدعاية. وقد عُرض لأوّل مرّة على الجمهور عام ١٩٢٦. (م)

الأسفل. نظر إلى الساعة فرأى أنّها ما زالت الرابعة والربع، أي إنّه ما زال لديه خمس عشرة دقيقة أخرى على الموعد. وهكذا سار على طول الرواق الغربيّ وهو يتوقّف لمشاهدة الصروح ولقراءة الشواهد. توقّف لفترة طويلة أمام منحوتة لبائعة البندق وبدأ بمراقبتها باهتمام. كان وجهها مصوّراً بطريقة لا شكّ في واقعيّتها تبرز تقاطيع ملامحها الشعبيّة. من الواضح أنّ تلك العجوز جلست أمام النحّات بملابس العيد، لأنّ هناك صدّارة مصنوعة من الدانتيل تحت الشال الشعبيّ، كما تغطّي التنّورة الأنيقة الثنايا الغليظة لتنّورة ثانية، والقدمان داخل خفّين. كانت تحمل حول ذراعيها أكاليل البندق التي كانت تبيعها طيلة حياتها، توقفت على جانب من الطريق ليُنحَت لها ذلك التمثال بطولها الطبيعيّ، حيث ترمق الآن الزوّار بكلّ كبرياء. على مسافة قريبة عبارة منقوشة على منحوتة تذكّر بشكل ما بتمثال عرش لودوفيزي[1] وتقول إنّ امرأة لطيفة وفاضلة اسمها ماتيلْدهْ جابّيكيلّي رومانينغو ما إن تعدّت الخمسيّة السادسة من عمرها حتّى خلّفت وراءها زوجها وطفلتيهما لوكريتسيا وفيديريغا غارقين في الدموع. حدث هذا في ٢ أيلول ١٨٨٦ وها هي صورة الطفلتين وهما تمسكان بشفقة ورأفة ملاءةً تطير بها السيّدة ماتيلْدهْ في السماء، وقد كُتب على الملاءة: ما

١ Ludovisi Throne قطعة أثريّة قديمة من الرخام الأبيض في ثلاث واجهات تعود إلى عام ٤٦٠ قبل الميلاد. (م)

عسانا نقدّم لك يا أمّنا الغالية غير الصلوات والزهور؟

عَبَر الرواق ببطء حتّى وجد القبر ذي الملاك والبومة. لاحظ أنّ نورساً وحيداً دفعته رياح الجنوب الشرقيّ لأن يحوم فوق الساحة كأنّه ينوي أن يحطّ فيها. فليس نادراً في مثل هذ الأيّام التي تهبّ فيها رياح الجنوب الشرقي وتعصف بعنف، أن نرى أسراب النورس وهي تحلّق حتّى في المناطق الداخليّة من المدينة، فوق القناة المليئة بالنفايات قبل أن تدور لتحطّ على اليابسة بحثاً عن الطعام. أصبحت الساعة الرابعة والنصف تماماً، جلس سبينو على سور الرواق تاركاً القبر وراء كتفيه ثمّ أشعل سيجارة أخرى. لم يكن هناك أحد تحت الرواق كما قلّ عدد العجائز وسط الساحة. رأى في الطرف الآخر من الساحة وفي زاوية قريبة من أشجار السرو رجلاً بدا أنّه يتعبّد قرب الصليب، فبدأ بمراقبته. مرّت الدقائق بطيئة دون أن يتحرّك ذلك الرجل، ثمّ نهض بسرعة وتوجّه نحو ساحة الخروج. نظر سبينو حوله ولم يجد أحداً. بدأت ساعته تشير إلى الخامسة إلّا ربعاً فأدرك أنّ أحداً لن يأتي الآن إلى ذلك الموعد الغريب، أو ربّما لم يكن هناك أحد يجب أن يأتي: كلّ ما هنالك أرادوا أن يعرفوا إن كان سيذهب حقّاً إلى الموعد، وقد يكون هناك الآن شخص يراقبه رغم أنه لا يستطيع هو أن يراه، وهو يريد أن يتحقّق من استعداده الفعليّ، أي إنّ الأمر كان كلّه نوعاً من الامتحان أخضعوه له.

هبط النورس بخفّة على الأرض على مسافة أمتار قليلة منه وبدأ يسير مطمئناً بين القبور بطريقة مضحكة تثير الفضول، كأنّه حيوان منزليّ. فتّش سبينو في جيبه ثمّ رمى له بقطعة حلوى فابتلعها الحيوان في الحال وهو يهزّ رأسه وينفش ريشه بسرور. ثمّ أقلع في تحليق قصير كأنّه يقفز قفزاً واستقرّ على كتف جنديّ صغير من الحرب العالميّة الأولى بدا أنّه ينظر إليه بهدوء. "من أنت؟" قال له سبينو بصوت منخفض، "من أرسلك؟ لقد كنت تتجسّس عليّ حتّى في المرفأ، ماذا تريد منّي؟."

بقيت دقيقتان على الخامسة. نهض سبينو بحركة عنيفة وبسرعة أفزعت النورس فانطلق محلّقاً ليطير فوق الساحة الأخرى قرب الدرج. ألقى سبينو قبل أن يغادر المكان نظرة على القبر ذي الملاك والبومة وقرأ شاهدته التي كان قد أهمل قراءتها وسط قلق الانتظار. ظنّ عندها أنه استطاع أخيراً أن يفهم: فهناك شخص ما أراد بكلّ بساطة أن يدفعه لقراءة تلك الشاهدة، وأنّ هذا بالذات هو هدف هذا الموعد، وأنّ هذه هي الرسالة. كان هناك تحت اسم أجنبيّ موجود داخل لفافة منحوتة، شعار يونانيّ كُتبت قربه ترجمة إيطاليّة: "يموت جسد الإنسان، لكنّ الفضيلة لا تموت"

بدأ يمشي فتردّد صدى خطواته عالياً تحت الأقواس. عندما وصل إلى البوّابة كان الحارس قد بدأ بدفعها على العجلات الصغيرة ليغلقها فحيّاه على عجل، وقال له: "بقي في الداخل

نورس، يبدو لي أنّه يريد أن ينام هناك." لم يجب الرجل بكلمة، ثمّ خلع قبّعته ذات الواقي الشمسيّ ورتّب شعره على رأسه الأصلع بعض الشيء.

١٩

عندما عاد وجد الرسالة في علبة البريد: كانت عبارة عن بطاقة مكتوبة بحروف مطبعيّة كبيرة وفيها إشارات إلى المكان والزمان.

وضعها في جيبه وصعد درج عمارته القديمة، وعندما دخل إلى البيت كانت ساعة برج سان دوناتو قد بدأت تدقّ السادسة. أسرع نحو باب الشرفة وفتحه على مصراعيه رغبةً في أن ينتشر صوتُ الساعة في أرجاء بيته. خلع ربطة عنقه واستلقى على الأريكة ومدّ ساقيه على الطاولة أمامه. لم يتمكّن من أن يرى من ذلك المكان إلّا طرف البرج، وقرميدَ السقف ثمّ قطعةً من الأفق. تناول ورقة بيضاء وكتب بحروف مطبعيّة كبيرة: "هل يبكي؟ ومن هي هيكوبا[1] بالنسبة له؟."

وضع الورقة إلى جانب البطاقة وفكّر بالرابط الذي يربط بينهما.

[1] هيكوبا هي من شخصيّات الأساطير الإغريقيّة. والعبارة أعلاه من مونولوجات ملحمة هملت لشيكسبير: What's Hecuba to him, or he to Hecuba/That he should weep for her? (م)

شعر بما يغريه لأن يكلّم كورّادو بالهاتف ليقول له: "هل تذكر يا كورّادو هذا البيت من الشعر؟ لقد فهمت الآن تماماً ماذا يعني." نظر إلى الهاتف لكنّه لم يتحرّك من مكانه، لأنّه أدرك أنّه لن يتمكن من تفسير قصده، ربّما كتب عن ذلك إلى سارة، دون تقديم كثير من التفسير بالطبع، هكذا، بنفس البساطة، فكما فهم هو عن طريق الحدس، فكذلك ستفهم هي أنّ الممثّل البائس الذي يبكي (لكن من هو؟) كان يرى في هيكوبا نفْسَه بالذات، ولو بشكل آخر وبطريقة أخرى. وفكّر في مقدرة الأشياء على العودة من جديد وفي كَمْ من أنفسنا نرى في الآخرين. غمرته موجةٌ عارمة فاترة عندما تذكّر سرير الموت ذلك والوعد الذي قُطع ولم يُوفَ به. إنّ ذلك الوعد يقتضي الآن تنفيذاً، رغم أنّه هو بالذات وتحقيقاته التي أجراها شكّلا معاً طريقة من طرق ذلك التنفيذ، طريقة مختلفة وغير مناسبة في ظاهر الأمر لكنّها تخضع لمنطق محتّم كأنّه هندسة مجهولة: كأنّه شيء يمكن تخمينه لكنّه لا يمكن أن يظهر بطريقة منطقيّة أو في صيغة سؤال محدّد. فكّر أيضاً أنّ هناك نظاماً يتحكّم بالأشياء وأنّه لا شيء يحدث بالصدفة. المشكلة هي أنّنا لا نعرف الروابط الحقيقيّة بين الأشياء، وهنا شعر بحجم الغرور الموجود فينا وبالطريقة المبتذلة التي نربط بها بين الأشياء التي تحيط بنا. لذلك نظر حوله ثمّ فكّر: ما هو الرابط بين ذلك الإبريق الموضوع فوق الصندوق وبين النافذة. ليس بينهما أيّ صلة، وكل منهما غريب عن الآخر، لكنّه رآهما مقبولين معاً لمجرّد أنّه اشترى ذات يوم قبل

عدّة سنوات ذلك الإبريق ثمّ وضعه على الصندوق قرب النافذة. وهكذا فإنّ الرابط بين الشيئين هما عيناه اللتان كانتا تراهما. غير أنّ هناك شيئاً، شيئاً أكبر من هذا، قاد يدَه لتشتري ذلك الإبريق: تلك الحركة المتسرّعة المنسيّة إذاً هي الرابط الحقيقيّ، في ذلك الرابط يكمن كلّ شيء، العالَمُ والحياة، بل كونٌ بأكمله.

فكّر عندها من جديد في ذلك الشابّ، وعندها فقط رأى المنظر بوضوح: أجل، هكذا سارت الأمور، وهو لم يكن يدرك ذلك. لقد تخيّله وهو يخرج من مخبئه ويدخل عن عمد في مسار الطلقات بحثاً عن الطلقة المناسبة التي ستصيبه وتميته. رآه يتقدّم على طول الممرّ بتصميم محسوب، كمن يتّبع مساراً هندسيّاً معيّناً لأداء كفّارة أو لتركيب رابط بسيط بين الأحداث. هذا ما فعله كارلو نوبَدي الذي كان يُدعى في صغره كارليتو: أقام صلة أو رابطاً، وجدت عبره الأشياء الموجودة طريقة لرسم خطّتها وحبكتها.

وهكذا تناول الورقة وكتب عليها السؤال حول هيكوبا وعلّقها في الشرفة بملقط على حبل الغسيل، ثمّ عاد ليجلس كما كان يجلس وهو ينظر إليها. كانت الورقة تخفق كالعلم على وقع هبّات النسيم القويّة، كانت مثل بقعة واضحة تخشخش في الليل الذي بدأ ينسدل. اكتفى بالنظر إليها طويلاً وهو يقيم من جديد رابطاً بين تلك الورقة التي كانت تهتزّ في الظلّ وبين خطّ الأفق الذي بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً في الظلام. نهض ببطء بعدما

اعتراه تعب شديد. لكنّ التعب كان هادئاً مسالماً وكان يقوده من يده نحو السرير كأنّه عاد طفلاً صغيراً.

في الليل رأى حلماً. حلماً لم يره منذ سنوات، منذ سنوات عديدة. كان حلماً طفوليّاً، أعاده إلى طفولة يشعر فيها بأنّه خفيف بريء. وأدرك في هذا الحلم إدراكاً غريباً أنّه استعاد ذلك الحلم القديم، لتتعمّق براءته، في ما يشبه التحرّر والانعتاق.

٢٠

قضى نهاره في ترتيب كتبه. ليست معقولة كميّة الصحف والأوراق التي يمكن أن تتراكم في البيت: رمى منها أكواماً كثيرة بعد أن نظّف الأريكة والزوايا التي تجمّعت عليها عبر السنين. انتهى الأمر إلى القمامة أيضاً بمحتويات صناديق كثيرة وأشياء قديمة تافهة لم يكن يتمكّن من رميها إمّا بسبب الكسل أو بسبب آلام لا يمكن تفسيرها تثور عندما نهمّ برمي أشياء لها علاقة بماضي حياتنا. عندما أنهى عمله بدا البيت كأنّه بيت آخر، لا بدّ أنّه سيعجب سارة، سارة المسكينة التي تحمّلت لوقت طويل تلك الفوضى التي لا توصف. كتب لها في المساء رسالة ووضعها في ظرف كان قد لصق عليه الطوابع وفي نيّته وضعه في صندوق البريد وهو في طريقه إلى الموعد. ثمّ كلّم كورّادو بالهاتف، عندما أجابه المجيب الآلي اضطرّ إلى إنهاء المكالمة لأنّه لم يكن قادراً حينها على ترك الرسالة الصوتيّة التي طلبها الصوت المُسجلّ. حضّر بعدها جواباً وأعاد الاتّصال: "تشاو،

كورّادو"، قال، "أنا سبينو، أردت فقط أن أحيّيك وأن أقول لك إنّي أفكّر فيك بمحبّة." عندما أغلق الهاتف عاد إلى ذاكرته يومٌ من سنين خلت، يومَ طلَب الرقم للمرّة الثانية وقال: "كورّادو، ها أنذا للمرّة الثانية، أتذكر ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه معاً لمشاهدة فيلم 'بيك–نيك' وعشقنا وقتها كيم نوفاك؟"، لم يشعر بأنّه قال أمراً مضحكاً إلّا بعدما أغلق الهاتف. لم يكن بوسعه طبعاً أن يصلّح خطأه. ثمّ فكّر أنّ كورّادو قد لا يجد الأمر مضحكاً، كلّ ما هنالك أنّه قد يجد غريباً سماع هذه الأقوال عبر المجيب الآليّ.

حضّر العشاء بعدها من علبة سلمون لا يدري منذ متى وضعها في الثلّاجة وتناول معها شرائح أناناس مرشوشة بنبيذ بورتو. عندما هبط المساء شغّل المذياع دون أن يشعل الضوء وبقي في العتمة وهو يدخّن وينظر عبر النافذة إلى أضواء الميناء. ترك بعض الزمن يمضي، فلطالما أعجبه الاستماع إلى المذياع وهو في الظلام، كان هذا يمنحه دائماً شعوراً بالبعد. استيقظ على دقّات ساعة برج سان دوناتو تعلن الحادية عشرة. ذهب لغسل الأطباق ثمّ رتّب المطبخ على ضوء الشموع لأنّه كان يخشى عنف الضوء الكهربائيّ. خرج في الحادية عشرة والنصف، أغلق الباب بالمفتاح وترك المفتاح تحت إناء الزهور في منتصف الدرج، حيث كان يتركه عادة لسارة.

وضع الرسالة في صندوق بريد قرب كشك الصحف، مشى في شارع فيكو دي كالافاتي ونزل على الدرج حتّى الطريق

الساحليّة. بدأت مطاعم الميناء تغلق، كان هناك رجل عجوز غارق حتّى الوركين في جزمته المطّاطيّة ينظّف المنصّة التي يبيع عليها أسماكه. سار في رواق ريبا حتّى المحطّة البحريّة، ثمّ عبر سكّة الترام التي نجت من طغيان الإسفلت قرب حاجز البوّابة. كان هناك حارس ليليّ ينزل في نفس الاتّجاه على درّاجته الناريّة، مرّ قربه وتمنّى له مساءً سعيداً، بعد أن غاب هذا عن الأنظار دخل إلى منطقة الميناء عبر بوّابة دوّارة قرب باب الجمارك الكبير. كانت الإنارة مضاءة في بناء موظّفي الجمارك. لكنّه فضّل اختصار الطريق والمرور عبر متاهة الحاويات لكي لا يراه أحد، اجتاز رصيفاً رسا عليه زورق حراسة تابع لماليّة الجمارك ثمّ وجد نفسه على الأرصفة التجاريّة. تجاوز الرصيف القديم المليء ببالات القطن وتوقّف عند أحواض التصليح الجافّة. لم يبق أمامه أثر لأيّ وجود بشريّ، وأصبحت الأضواء تأتي خلفه، من سفينة راسية على الرصيف ومن نافذتين في بناء المحطّة البحريّة. سار لمسافة خمسمئة متر تقريباً، مهتدياً بإشارة المرور المعلّقة على الطريق الساحليّ على يمينه. أشعل عود ثقاب ليعيد قراءة الإرشادات حول الطريق التي عليه أن يسلكها، ثمّ لفّ الورقة وألقاها في الماء. رأى الهنغار المظلم تحت هيكل جسوره المعدنيّة، جلس على درج حديديّ قرب حافة الماء، وأشعل سيجارة. دقّت ساعة برج سان دوناتو منتصف الليل. أبطأ من جديد لبضع دقائق وهو ينظر إلى البحر المظلم وإلى ضوء

يرتعش في الأفق. كان عليه لكي يصل إلى الهنغار أن يدور حول عدّة حاويات كبيرة موضوعة على الرصيف دون ترتيب معيّن. كان المكان مضاءً بمصابيح صفراء لتبديد الضباب عكست أربعة ظلال لجسمه يتّجه كلّ منها في اتّجاه معاكس للآخر، كما لو أنّها تفرّ منه كلّما تقدّم خطوة. وصل إلى خلف الهنغار مروراً بالطرف الذي تلقي عليه المصابيح ضوءاً باهتاً. كان على مقبض الباب سلسلة دون قفل فسلكها ضمن الحلقات. وعندما فتح طرفاً من مصراع الباب تسرّبت إلى العتمة في الداخل حزمة ضوء صفراء طويلة توزّعت في الحال في زاوية قائمة على كومة الصناديق. سعل ثلاث مرّات بطريقة متقطّعة آمرة، كما كان عليه أن يفعل، لكن لم يصل أيّ جواب من الداخل.

"هذا أنا" قال بصوت منخفض، "لقد أتيت."

انتظر لحظة، ثمّ كرّر بصوت أعلى: "هذا أنا، لقد أتيت." في تلك اللحظة فقط تأكّد تماماً أنّه لا أحد في ذلك المكان. انفجر رغماً عنه في الضحك، بصوت منخفض في البداية، ثمّ أقوى فأقوى. استدار ونظر إلى الماء على بعد أمتار قليلة. ثمّ تقدّم في الظلام.

ملاحظة أخيرة

يَدينُ هذا الكتاب لمدينة، ولشتاءٍ كان بارداً، وكذلك لنافذة. لم تحمل كتابته إليّ كثيراً من السرور. لكنّني لاحظت أنّه كلّما شاخ المرء مال إلى الضحك وحده، على انفراد. وهذا يبدو لي تقدّماً نحو كوميكيّة مستقلّة وقائمة في ذاتها وأشدّ تعقيداً.

اسم سبينو هو من اختراعي، وهو اسم أحببته. يمكن أن يرى البعض أنّه اختصار لاسم سبينوزا[١]، الفيلسوف الذي لا أنكر أنّي أحبّه، لكن من المؤكّد أنّ الاسم يعني أشياء أخرى. وعليّ أن أقول هنا إنّ سبينوزا كان من اليهود السفارديم[٢]، وكان مثله مثل الكثيرين من أبناء جلدته يحمل خطّ الأفق

١ باروخ سبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢–١٦٧٧) فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن الـ١٧. (م)

٢ اليهود السفارديم هم المنحدرون من أصول إسبانيّة وبرتغاليّة، على عكس اليهود الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوروبا. (م)

داخل عينيه. من الناحية العمليّة خطّ الأفق هو مكان هندسيّ يتحرّك كلّما تحرّكنا. وكم أودّ أن تكون شخصيّة هذا الكتاب قد وصلت إليه وبَلَغتْه بسحر ساحر، لأنّ خطّ الأفق كان في عينيها أيضاً

أ. ت.

‘هدية رائعة وغير متوقعة‘

Le Monde (عن روايته ‘إيزابيل‘)

جثّة مجهولة الهويّة تصل إلى المشرحة في جريمة غامضة.

لم يعرف أحد إلى من تعود الجثّة. لكنّ سبينو، العامل في المشرحة، يقرّر أن يتحرّى القضيّة، فيروح يبحث عن أدلّةٍ للغزٍ أشبه بالمتاهة، كلما أوشك أن يقبض على الحقيقة، أفلتت منه.

من الحانات إلى أرصفة الموانئ، ومن مكاتب الصحيفة إلى المقابر، وفي مواعيد لا تكتمل، يتنقّل سبينو باحثاً عن هويّة الضحيّة وما خلف مقتله في دوّامة تشبه البحث عن معنى الحياة.

أنطونيو تابوكي (1943 - 2012) كاتب وروائي إيطالي. أحد أبرز أصوات الأدب المعاصر في إيطاليا وأوروبا. ترجمت مؤلفاته إلى أكثر من عشرين لغة. نال جوائز عدّة أبرزها ‘جائزة جان مونّيه‘ الأوروبية عام 1995. صدر له عن دار الساقي ‘إيزابيل‘.

ISBN 978-6-14425-916-0

9 786144 259160 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com